الربيع

وقصص أخرى

بقلم

حبيب توفيق

بالجامعة المصرية

« ومؤلف الربيع وقصص اخرى »

الإهداء

أ . . .
كان بالقلب ظلام . . .
واكتنفت النفس وحشة . . .
والذهن غمره التشاؤم حيناً مديداً . . .
أما الوجود فأحسسته ثقيلا مملولا . . .
أ . . .
وافيت بعدها كالحلم المعسول كله منى . . .
أبدت الأسى ومحوت العتمة . . .
أ . . .
تقبلى كتابى . . .
هو ثمرة قلب حزين . . .
ولكن به زهر يفوح بالطيب ..
أ . . .
هبينى قلبك من جديد . . .
جودى بكل ما يبتغى أخلد الهوى . . .

هيب

تقدمة

للأديبة الآنسة مضيئة عبده

قلتُ

ـ مهمتى شاقة يا صديقى ، ومن الظلم أن ترهقنى بها ، فخير لو لجأت الى واحد من أساتذتك الاجلاء ، طه أو العقاد أو المازنى وغيرهم ، ففى أقلامهم ما يرفع كتابك الى أعلى السماكين وفى مقدمتهم ما يشبع جوعة القراء ويسد نهمتهم .

ـ بل اساتذتى ، أكاد أستخلص انهم يعيبون هـذا الاعتماد منا عليهم دائما ، ولشد ما يرتاحون اذا رءوا أقلامنا تحاول فتفلح فى المحاولة . ولشد ما يطربون لخيالنا الفتى ، يتخذ طريقه من بداية الكتاب الى آخره ، مستقيما راضيا ، كأنما ربح من تجاربهم قوة وبقاء ، وكأنما شبعت نفوسنا وريت نزعاتنا من منطقهم العـذب وتحليلهم الرائع السليم ، فراح يدور ويدور ، ثم ينصب فى كلماتك أوكلماتى كصدى لروح المجتمع الذى باتوا ينشدون .

ـ ولكن اسـاتذتك لشد ما يغضبون اذا رأونى وقد قصرت ، ولشد ما يقسون فى عتبهم وإيلامهم اذا لم تصدف تقتك فى مكانها الذى تتوقعه ، واذا فشلت ولم أوفق فى

تقدمة كتابك على النحو الذى ترجوه ويريدونه لك بل واتمناه .

— بل هم لا يستروحون منا الكمال بقدر ما يستروحون فننا اللاعب الرقراق ، عرة يخطىء وعرة يصيب ، تائها هنا وموفقا هناك ، فاذا أمسكوه وحاولوا اصلاحه وافاهم بالمتعة وجديد المشاهدات . وهنا لا تلمسين لنقمتهم أثرا بقدر ما تلمسين الرضاء الساخر والعتب الرصين ، ثم أنت لا تشهدين فى عيونهم وقد شبعت من مثل أقلامنا المصية النافره ، غير اعزار الماضى وتدليله فى ذواتنا . . . .

بل هناك حبهم ورضاؤهم يتفلفل الىّ واليك والى فنى وكتابتك سواء رغبنا أم لم نتوقع ، وسواء عاشت فينا آثارهم أم عشنا لننسج ونجدد على المنوال الذى كانوا يريدون . . .

وعلى هذا تركت صديقى ورحت أتخذ طريقى الى الكتاب كقصة . وكقصة مصرية تعرفها من اسم « مديحة » وتحسها فى هذه الكلمة الشرقية المائلة .

وقبل أن أفعل هذا لفتتنى إشارة القارىء الخفية ونظرته اللحة الصامتة ، تسألنى سؤالها الأبدى ، ان كانت للزميل قصة فى حياته . وان كانت تعيش وتكمن رواية المؤلف ضمن

ما يحويه كتيبه وما يفصح به قلمه وما يبديه ؟ . . .

ولا تحرجنى هـذه النظرة من عين القارىء بقدر ما تعجبنى وتشجعنى على المضى فى الحديث . فمن منا قرأ كتابا الا وهذا الخاطر يساوره ويستغويه . وهذا الفضول اللذيذ المستحب يحركه بعين عطشـة وأنامل باحثة منقبة ، تجتـاز الكتاب من أول حروفه لآخرها في رشاقة وتفنن عجيب ، يتضاعف فى كل مرة ليزيده حنيناً على حنين ، ويحيل توقعه الى رجاء وأمل ويقين . هو الذى ألمحه اليوم فى عين القارىء فيكاد يحملنى على اللعب بشعوره هو والمؤلف سواء ، فأسوق لهذا ما يطربه ، ولذاك ما يعجبه وما يرضيه .

على أن هـذا لا يكاد يمر دون أن تلحظه عين المؤلف نفسه فتراه يغض عن هذا حائراً متخوفاً لا يدرى بمـاذا يكون الجواب ، بل انه ليشاغلنى عن هذ برأيى فى مقدمة الكتاب ، يظن أن فى سياقه ما ينسى القارىء سؤاله الملح

هو يغرينى بالنقد ويشجعنى على المضى ، ناصباً لى شركا لو سـقطت فيه لساءلنى القراء « وماذا تركت لنا بعـد قراءة الكتاب اذا واليته بالنقد أولا وآخراً ، فاخذت علينا تيار الحكم والتفكير فى تعجل ما قبلناه ، ولا اتفقت كلمتنا على القنوع والتأثر به ، ولو حملنا لك التجريح على محمـل النقد ، فهناك المحاباة والمديح والاطراء . حذار أن تقربيها

ولما ننته من مطالعة الكتيب بعد » فاذا سلمت بهذا عادوا من جديد يستثيرون فضولى ويضمون صفهم الى صفى ، فى نبش الاسرار وتتبع الغيب ، ثم الاتيان على خيال الزميل واخراج قصة جـديدة قد لا يعرف هو ان كانت له أو لسواه . . وان كان هو صاحبها أم ضحيتها . نختم بهـا صفحات الكتاب أو نقدمه ، مؤكدين الى غيرنا أن هـذه قصة الأديب الواقعة ، وفى ظلها مثل حكايته ونسج صوره وروايته . فاذا جاءنى غاضباً من هـذا التواطؤ المزدوج ، واذا عاتبنى على خيـاله مجرداً ، أسوقه الى الغير ممزوجاً باوهامهم ، قلت له « دعك من سوء الظن ، فانما هذا وتر فى نفوس قرائك وقراء سواك ، يصح للعليم دائما أن يعبث بقوافيه ، ولا تغضب بل تعال وارقب كيف يؤمنون ويتخيلون فيقيمون من كل كلمة قبة وقصوراً تحوى بدل القصة عشرات لا لشيء إلا لان نزعة التأليف وافرة فى نفوسهم كما توفرت فيك ، والفرق بينك وبينهم أن تأليفهم لا يعـدو دائرة الهمس والسر ، بينما يطلع كتابك على ملأ من الناس ليقرأوا ويعرفوا ، وبينما تتوفر فيهم صفة الحذر والحيطة فلا يعرض لنقدهم انسان ، أراك تفتح كتابك على مصراعيه مرحباً بكل نقد ومستسيغاً لكل عتاب .

انت مؤلف فقط يا صديقى ، أما قراؤك فمؤلفون

ومخرجو قصص . أنظر لقد رغبت عن تصوير نفسك في قصة واحدة ، فرحت ترسمها في أكثر من صورة غريبة مخالفة ، أما هم فلشد ما يحسنون الفن الصامت والاخراج ، فتراهم وقد لخصوا صورك العديدة وجمعوا شتيتها في لون من التوافق والانسجام ، تراهم وقد وفقوا اليه وصوروه ، فأحسنوا تصويره يتشبثون به ويصرون على ان هـذا فن الاديب وهذا مبحث وحيه وكتابته

أنت يا صديقي غاضب لهذا أو منزعج محتج ، ولـكني أتركك في مأزقك وأتركهم في تخيلهم للانتصار ، وأعود الى الـكتاب أدرسه كقصة

* * *

أول ما يلفتني فيه دعوته الاجتماعية البـارزة . ولشد ما يطربني ، أن تنحو قصص الشباب لونا غير ذلك الوصف المزخرف الطويل وأن تكون الحيـاة لناظريهم شيئاً خلاف الاسى والحزن أو اللذة والمفاجآت . القصة . . . ما أحب أن تبقى الى الابد صورة من التصوير فحسب ، بل هناك المثل الاعلى والغاية السامية يجب أن نحويها وتسيطر على جوها .

* * *

يكفي أن تقرأ « مديحة » فتلمس شعاع النور يتدفق

الى كيان الفتاة ، والفتاة المصرية ولا شك فيطلعها على علاج حالها ويريها منفذ الثلمة التى تفقد منها انوثتها ويضيع منها بهاؤها ، فتعيش وقد حرمت شاعريتها ومات خيالها ، كالدمية لا اكثر ولا أقل ، إن غمرها الحسن فمن هبة الله لا من صنعة حواء ، بل هو إن حواها فبلون من الكلفة والادعاء وتحت بارقة من بارقات التقليد . يريد صاحبي أن تتدرج من « قرن الحاجب وتزجيج الهدب » الى سر الفتنة وبلوغ روعة الفن .

لا يصف الاديب فى « مديحة » غير الروح الاخاذة الماثجة ، خصلات من الشعر الاسود ان ماجت وتناثرت فلأن صاحبتها قد سمحت للخيال الشعرى يعبث بها كيفما شاء ، فما لجأت ليد الصنعة وقطم الحديد والصلب والعاج ، تحبسها وتخنقها وتجعلها والرأس قطعة واحدة وحدتها « المودة » ولحمتها قيود جميلة ولكنها حمقاء . . فاذا خطرت مديحة للبيان فقد سال اللحن من شفاهها دفاقا ، وقد شعت الرهبة من عينها واناملها ، تحملك كالتائه الوسنان الى واد لا تلقى فيه شبح المرأة بهيكلها الحى وشكلها المجسم بل تلقاها كصورة من أطياف السحر وخفقة من خفقات الروح تملكها المرأة فتشعها ولا تفقد أو تعطى من روعتها كثيرا ولا قليلا . وشعور الرجل لا يموت تجاه مديحة . ابنة الفن

والشعر وكتلة الوحى والاخيلة والاحلام ، بل هو يعيش فى ظلال هذه الفتنة ويسمو مع اسكار وايلد فى عبادة الفن وتقديسه ، ويأخذ عن أمة الرومان فناءها فى قطع الرخام والمرمر والتماثيل ثم الحانها السماوية الخالدة . لماذا نبرم بالحياة وصاحبي يأتيها صفحة من كتاب الابدية ، تجتمع فيها رسالة المرأة بخضوع الرجل ، ثم يرددان سويا نشيد الفن والعظمة والجمال .

* * *

فاذا فرغت من دعوى الأديب الفنية فعد الى قصته « الفنان » وهناك تساءل معى أن بقيت لفتاة عاشقة رغبة فى العبث أو المجون بعد الذى تلقاه من موقف صاحبها العزيز الكبرياء ، والذى شاء المؤلف أن يجعله فناناً ، تأييداً لدعوته السابقة ، أفلم يعطها من قلبه كنزاً لو حفظته لظل لها الى الابد نبراساً من النور والبقاء تعيش من سموه ويغذوها حنانه الزاخر وعذوبته ، ما لها قد جرفها البحر والرمال ، فساخت اقدامها ولما تصح الا والفجيعة تهم أذنيها ، وصورة الرجل الأبى تنملس في ناظريهـا فلا تعود ولا تحيى ، ولا تطالعها بغير الحسرة وندبة الفتاة فى كبريائها وكرامتها تعيش وتستقر لتكسـو مستقبلها بذلك اللون من الشـك الهائل الرهيب .

ماذا يجديها أن تكفر ، وقد قطعت صلتها بالحياة فعاش الناس على سيرتها الماضية وعاش تاريخها على أثر الفجيعة أو التوبة والغفران يتردد ويتقلص ثم يبرز صارخاً مستعطفاً لو نسى الناس هذا الماضى أو أسدلوا عليه حجب النسيان

أنت حائر يا صديقى القارىء ، لا تعرف ما مستقبل الفتاة التى مثلها الزميل المؤلف . وإذ رجوت أن لا يظل حسيراً كابياً على طول الخط ، ذلك لان نزعة الخير ما زالت تصالحنا مع المرأة الخاطئة ، فنظل نرجو لها الافاقة حتى آخر لحظاتها ، ونظل نعطيها شيئاً من العطف ، ان مازجه اشفاق الحسرة والاحتقار فحسبها ان تعيش في ظلاله وأن تستعين من وفرته قوة تعينها على احتمال أيامها الباقيات ، وتعيدها الى حظيرة الانسانية مطهرة منقاة ، بعد ان تمرق بوتقة التجربة وتغسلها دموعها من خدعة الهوى ولطمة الماضى المثقل الحزين

* * *

بقى على أن أقودك من جريمة المرأة الخاطئة الى جريمة المجتمع المتسلط الجبار ، ولا أدرى لماذا نقسو في حساب المرأة على جرمها ونترك للرجل حرية التصرف فى أمرها وموافاتها بنصيبها من السعادة والشقاء

أقسوة من البشر ان ينحو الى الانتقام ولا يرى سبيل الرحمة ؟ . . .

« وعلى المذبح » يريك الاديب ، صورة من هذه القسوة الهائلة ، تصم جبين المجتمع وتسجل أن فى الرجال من يعيش ليحرم المجتمع زهوره ويجرد الانوثة من ترائها العزيز

لا لشيء إلا لانه رجل ولان الطبيعة قد عودتها هذه التضحية الباكية الحزينة .

ولا أحب أن انعت الطبيعة بالظلم ومعصية الله ، فقد اقنعنى المؤلف بغير هـذا وقد ضرب على وتره الحساس متذمرا من حشو التقاليد البالية ، ومن جهل المجتمع بحرية المرأة وواجبها عليه

مأساة وإن لم يعقبهـا الموت دائما ، فهى تعيش تحت انقاض البيوت ولنـا فيها عبر لو نالت الحادثات حظها من التحقيق ، هنا تموت الآراء وهنا تداس القلوب ، بل هنا يمثل الوالدون دور التاجر والرابح الوسنان يسيل الذهب من انامله ويلبى الصفقة عن جشع وإزدراء ، فاذا نادى البعض بحق المرأة ، عللوه بسفورها الكاذب ، وعالجوه بتلك الحرية المكذوبة .

« هذا بلد لا ينفع فيه نداء المرأة لتنال حقا من حقوقها ، نِعَمَ أهله العناة بالظلم واستمرءوه فلا يرجعون ،

ووقفت هى تصلد للجهاد فما قدرت لانها عزلاء ، حتى إذا قيض لها القدر من ينشلها سخر منه اغلب القوم وهللوا تحقيرا »

وهل أريد دليلا على دعوة الاديب الاجتماعية الناهضة بعد هذا النداء وهـذا التحليل ، ولعمرى لو ناقشت تصور صديقى لحالة هذه المرأة ونفسية هذه الضحية ، ما استطعت أن اصف خياله بغير الابداع والتوفيق ، وأن أرقب تغلغله فى ثنايا الشخصيات بهذا الحذق وتلك المهـارة والمقدرة فلا أدرى أصورة ترسمها ريشته وحقيقة من وقائع الحيـاة ، أم صنف من سمو النفس وروعتها فى اتيان التفنن والخيال

* * *

ولولا انى وعدتك ألا آخذ عليك رأيك فى مطالعة الكتاب لمثلت لك اثر الجمال فى كل ناحية من نواحيه ، فى الفكرة والاسلوب ، والغاية والتعبير .

ولهذا ، أتركك ، واهنىء زميلى على توفيقه توفيقاً ما له مزيد وكم أود أن تظـل المرأة مادة للكتابة والبحث فى كل حين ، وأن أرى حقوقهـا تعيش لا فى قلبها المحتبس المخنوق ، بل فى رسالة الشباب ، وفى هذه الرجولة الفتية الناهضة.

عبد المفيد
بكلية الآداب بالجامعة المصرية

مقدمة

كان الجو المكتنف والبيئة المحيطة مصرية صميمة . والأركان والمناحي ، وكل ما بالمكان ينم عن تلك الروح المستعذبة . حتى البسمات عريضة تنفرط في غلو وصراحة وقهقهة . والشباب المتحمس المثقف في ذلك الحفل المستأنس قد نسى كل ما يطلقون عليه نموت المجتمع الرفيع . فليس هناك شخصية ، أو تقليد ، أو عرف ، أو ما يحاكيها .

وصفت الاذهان المرحة من كل ما يحول بها ، الا أن الساعة بهيجة تفيض بمامر الطرب . والنفس شاغرة خلية ، الا من دواعى الانس المواتى في تدفع وافراط . وكان صديقهم الذى يحتفون به ، محبباً الى كل منهم عزيزاً لديه . منذ صباه كان حلماً يعشق أو ملكا يحب . ثم انقضت سنون ، وتخطى كلٌ مرحلة من الحياة تباين أو تشابه مرحلة الآخر . ولكنّ ودّ الصديق دائم لا يحول . فيوم رحل الى لندن ، ويوم عاد منها ، شعرت هذه النفوس أن شيئاً من الابقاء على الود يربطها ، وواعزاً يدعوها لتتآلف وتفصح عما تحس به

نحو هذا الخليل. وفي ذلك اليوم، تذكر كل ثمانية أعوام خلت. وقفوا في أحد أيامها يودعون حمدى. ثم ذكروا الدمع ترقرق فى عينيه ثم وكف ساعة اخترق الفضاء صفير الباخرة التى تقله، ثم أيديهم تمتد ملوحةً، وما قيهم بها مثل ما بعينى صديقهم من شئون.

وسرعان ما أنساهم الرضى الحاضر ساعة فرطت وراح معها سالف الألم. وأصبح اللقيان المستحوذ هو كل الخواطر الطروب وماؤها.

ـ شرفت مصر وأنرتها يا أستاذ...

وانطلق الصوت مفاجئاً عاليا، كأنما أراد صاحبه أن يطمس به بعض الفوضى المتملكة. ولو ان كلا كان يتجاذب أطراف الحديث مع آخر، الا ان غالب رمقاتهم كانت متطلعة الى حمدى. وخفتت الاصوات لحظة تتطلع الى جوابه الموموق.

ـ ياسيدي العفو . . . أشكرك . . .

وتبسم لا عن كلفة ، وانما لعبارة صديقه التي انبجس منها الشعور القومى الحلو . والروح التي طالما تاقت اليها نفسه وقتما كان بعيداً عن موطنه نائيا عن خلانه . وكان قد دفعه الحنين الى ان يستمرىء كل ما جادت به الأفواه من عبارات الترحيب على أثر مقدمه هذا . وانتهز واحد آخر فرصة هذا الصمت المستوى ، كأن الآذان كانت مرهفة الى حديث يهم الجمع المنصت وتكلم .

ـ نريد أن يحدثنا الاستاذ ، فقد اشتقنا الى كلامه الحلو . . .

فامتدت البسمات من واحد الى آخر وتطاولت لدى حمدى الذى بقى على صمته وسكونه . وإن كانت علائم وجهه المنسق قد دلت فى إفصاح جلىّ على كثير من المعانى تجول وتتضح ، فهو بدا مستسلماً لكل ما يدفعه اليه خلانه من مطالب ، وراضياً لان يقوم بها . ثم هو الى ذلك محدث

اديب ، كان يغرم به العقاد ويحبه طه . ثم إنه اذا تكلم يوماً عرف أنه يطرق كل حديث ويغامر في أعوصها وأعنفها مسلكا ، الا واحداً ما يفتأ يحيد عنه ويجتويه . هو ما يتصل بكثير أو قليل عن المرأة . ولذا فخلانه يدركون هذا المغمز فيه . ويأخذونه عليه في شيء من المهوادة والعذوبة . فان اجتمع يوماً الى من لا يعرفونه ، وتشعب بهم الكلم كعادته ، وامتد الى حديث الحب أو المرأة ، عبر الثغرة فى كثير من الصنعة المستورة . وأصبح كل يعرف هـذا عنه حتى منذ صغره ، ويستمرىء منه شذوذ طبعه هذا . وإن عدّ غرابة فهى فيه من النوع الساحر الأخاذ .

وأُخرجت علب التبغ وامتـدت الأيدى وسرعان ما تصاعدت لفائف الدخان فى سماء الغرفة ، وبدأت تتشعب معها الخواطر وتسمو الى كل منحى . وكانت فترة استجمام لما تحفز ان يفوه به حمدى ، ولما أرهف له السمع خلانه . حتى بدأ يقول

ـ قد يصعب عليّ أن أطرق حديثاً شيقاً لكم ولى ثم ابتسم واستطرد

ـ فأن أفلحت في صدق الاختيار فلا تتهمونى بأني تعلمت في بلاد الغرب والسحر والكهانة . . .

وكانت النكات محتبسة في صدور بعض الحاضرين لأنهم من الشباب الذي يعشق الملح . فقاطعه فكه ظريف .

ـ طبعاً . وتشوف لنا البخت . . .

وبينما كل يجهز قولا طريفاً وتعليقاً مستحباً ، جابههم حمدى بقوله

ـ سأحدثكم عن المرأة . . .

فانبعثت القهقهة من كل فم عالية منغومة بروح الشباب المرح . إذ كان غريباً ان يحدثهم صاحبنا عن المرأة ، وهو أول من جرى في دمه بغضها .

وخفتت الضحكات . وتطلع كل الى صاحبه . وكثرت بعدها الهمسات التى جاد بها هذا الافصاح الغير مترقب .

وأدرك حمدى سر ذلك الشعور البادى على خلصائه ، وأراد أن ينقذ اللحظة التي غمرتهم بأن قال . . .

ـ أن كان لا يرضيكم منى إلا هذا الطبع العنيف المتمكن الذي خلقت عليه ، وإن كان يسترعى فارط دهشتكم نزوعي الى أمر كنت أجتوى الحديث عنه ، فسوف يرضيكم أنى سأحدثكم عنه دون ان أهواه كل الهوى ، أو أجنح قليلا عن الزعم الذي يدور بخلدى عنه . إن كلمتكم عن المرأة اليوم ، ظن أرفعها فى أعينكم مرتبة واحدة عما أحسه نحوها . هى هى ذلك المخلوق المستضعف الذى لا أحن اليه حنينكم اليه . ولا زلت انا حمدى الذى يبغض المرأة منذ الصبي . بل منذ ان انبعث الى المهد لا يدرى من أمر الدنيا إلا ثديها يرشفه . ويوم ان خلقته الطبيعة يحتاجها ويتطلب عونها . وانا الذي كنت اذا ما قدم الى ثدى أمى ، كان يقال انى آخذه كارها ، وأضغطه بكل ما يسع فمى الصغير من قوة الايلام . فاذا ما ظفرت منها بآهة ، أو بما ينم عن نهرة الاستهجان ، نظرت

اليها طرباً . وتحركت في نفسي الملتوية غريزة البغض تفصح بالرضى لأنى اثرتُ مكمن الألم في ذلك المخلوق ، وأحسسته بغير الرضى . ولا زلت أنا الذى كنت وأن لم أشب من المهد الا لأخطو خطوات متكسرة واهنة ، إلا انى ساعه كنت أظفر بأختى والتقى معها ، تملكتنى قوة ابليس ، وامتدت يدى الى وجهها رغبة منى في ان افقأ لها عينا ، او اسيل دما . وشببت أحب الأب والأخ وأميل اليهما اكثر من ميلى الى الام والاخت . انا هذا المخلوق الذي يدرى من الدنيا كل ما بها الا ما يسمونه حبا .

وان كانت قد أفلحتْ المرأة فى ان تسلب منى شيئاً طيلة هذه الاعوام ، فهو انها قدرت على ان أكتم احتقاري لها ، ولا أعلنه صارخاً جليا . قد أقابل المرأة في هذه الايام فتظفر منى بالبسمات وبالحديث العذب وبكل مايلائم الترحيب وكل ما ينتظر من امرىء مهذب الى حد يعتبر وفيراً . وهذا ما يجب ان يحسدنى عليه من توصل الى معرفة طباعى

وخصائلي . وقد يعتبر من لا يدري من حقيقة أمرى شيئاً ، أن ذلك ميل طبعى وتواؤم معهود ، جبلت عليه النفوس منذ خلقها . ألا أن المرأة مع كل هـذا مخلوق بغيض ، خاصة أذا وقفت في فترة دوما أعدها لعينة ، على مبلغ ضحاياها . أو على شأن من شئونها التي يكون نصيبها فيه كامل الظفر على الرجل. في تلك اللحظات أحس كأنما الزمن الجارى قد توقف عن مسيره ليشهدنى على أنى مهزوم لا محاله . وأن المرأة أن لم تتساو مع الرجل شخصية ومكنة ، فلن تضعف عنه أو يأتيها الوهن إن وقفت في الحياة الى جانبه

ثم توقف برهة . وتحرك حنينه الى التدخين ثانية كأنما فيه وحى من الفلسفة وسـيل من عذوبة الحديث يتدفق . فعاودوا الـكرة جميعاً ، وأشعلت عيدان الثقاب ، وقارب الواحد منهم فمه القابض على السيجارة من يد الآخر ليلهبها . وكانت لحظة اغتنمها صاحب الدار ليتكلم

ـ أتذكر ياحمدى يوم ان اعتزمتُ الزواج ، ويوم

غضبت معى بسببها شهراً كاملا ؟ . . .

ثم ضحك عالياً ، وحول الى اخوانه صفحة وجهه المبتهج لتلك الذكرى التى يعيبها صديقه وينكرها الباقون . ثم استطرد موجها اليهم الحديث

ـ كان يقول لي كل لحظة قبل الزواج . . . يظهر أن أباك اعتزم أن يئدك ياصفوت وما زلت على قيد الحياة . وكانت ترهبني قالته هذه لانى لم أكن من السن التى تدعو الى وثوق من أكثر شئون الحياة تعقيداً . واستمر يبعث في نفسى كل ما يستطيع به ان يثير حفيظتى ويدفعنى الى احتقار الزواج والرغبة عنه . فكل الاوصاف المريرة البغيضة يصورها لى منمقة متبدية فى جميع ألوان الصدق . حتى اذا ملَ ويئس هجرنى شهراً كاملا . ثم ابتدأ بعدها ، وأظن بعضكم خبر ذلك ، ينظر الى فى شىء من عدم الاكتراث ، كما لو كنت هبطت الى مستوى من التقدير دون ما كنت عليه . اذ كان يعد حمدى كل زوج على جانب كبير من

الخنوع والتقييد ، وأنه يفقد كثيراً من الحرية ، ويفقد معها تلك البهجة الملازمة للشباب الطلق ينعم بها فى فسيح الاجواء . ولذا فكان ينظر الي كصديق فقد الروح التى كان يشاطر بوساطتها كفئا له ونظيراً . وأنه أصبح لا يجد فيه بعد ذلك ، الرفيق الذى تنفرج أمامه كل مناحى الحديث . بل كان يشعر بأن دافعا من التحفظ يرغمه على مسلك خاص يتبعه معى . ولولا ان الزمالة كانت تجدد خالص الود وتنعشه ، لاجتوانى حمدى الى اليوم

ومن أغرب ما شهدت فيه ، انه عندما وضعت زوجى مولوداً أنثى ، امتعض كثيراً وتبرم . وتخيل ان هذا مغمز للنقد جديد . ثم من الغريب أيضا ان ابنتى هذه كانت تحبه أكثر من حبها للحلوى . . . بل ان شعورها نحوه كان يعدل ما تجود به من عاطفة نحوي . بل انها ما كانت تغتبط للقيانى قدر ابتهاجها بلقياه . فاذا ما زارنى يوما ، وسمعت صوته الذى يرن فى أذنها بنغمة تدركها للحال ولو كان فى هيجة

زحام، جرت اليه وارتمت بين أحضانه . فيستقبلها بأحساس يغلب عليه الفتور والتكلف . ثم يربت على كتفها وبعدها أشعر بيديه تحملانها بعيداً . كأن يدفعها الى تركه في حركة مستظرفة . وكثيراً ما كان يجلب لها معه الحلوى والكرات الملونة وغيرها مما يعشقه الاطفال ، لا لأنه كان يحب تلك المخلوقة ، بل لتأخذها وتجرى بها بعيداً . فيتخلص منها ويرتاح . . .

وسافر الى لندن ، وكانت هى وقتذاك في السادسة واستمرت تذكره حتى هذه اللحظة باخير وتسألنى دائما . . .

ـ إزى بابا حمدى يابابا ؟ . . .

فاستقبل الجمع ذلك في شيء من الغرابة والدهشة . وان كانوا قد استشعروا بعض الفكاهة المقبولة فى الحديث عن الطفلة ، وأعجبوا من ذلك الشذوذ الجديد في خلقها بقدر الغرابة المتحكمة التى تداخل نفس حمدى منذ طفولته الى هذه اللحظة .

وأردف صفوت ...

ـ والآن اترك لصديقي حمدى فرصة ليتم حديثه الشائق .

وهنا بدأ حمدى يتحدث بعد أن أشعل من نهاية سيجارته أخرى جديدة . قال

ـ كل ما جادت به قريحة صديقى لا غبار عليه . وأنها لذكريات لو ندمت على شيء منها ، فهو فواتها في ادبار سريع سالبة معها أهنأ العهود وأرقها . ماضٍ اذا وازنته بما أنا عليه الآن رجحت كفته وكان فائقا . وان كنا نعشق الماضى يوما ولم تبد عليه سمات تميزه ليفضل سواه ، فهذا لاننا لم نجد من الحاضر الملول ما يزيد به عليه ، ولم نشهد من خبايا المستقبل ومستسرة ما يشعر بما هو أبهج منهما وأسعد . وحسب المرء أن يهنأ بماضيه الناعم اذ تكون النفس فتية لم تذق بعد الا حلو الحياة ...

بالامس لم أكن أدرى من أمر المرأة شيئا الا انها

مخلوق أحس نحوه بشتى الوان البغض والكراهية . ولا يتجسم لدى من الأحاسيس بخصوصها ألا هذا . أما نفسية هذا المخلوق، أما مواطن الملاحة والفتنة والأغراء فيه ، أو نقصانها لديه ، أما ما يجب أن يكون عليه ، فلم تكن تعنيني أو أشعر بشيء من الاقناع في درايتها . وكنت مستمتعا حقا بعدم الاكتراث الذى يملأ جوانحى . أما اليوم فأنا غير ذلك . اذ كثرت خواطرى عن المرأة ، لا لأنى حننت اليها ، وكدت أغزم بها ، بل لانى أحس اليوم أن ذهنى يرغب في أن تسم منطقته معارف الدنيا والآخرة . وألا يتخلف شأن من شئون الحياة الا تحرك له . وهكذا أمكن للمرأة أن تستغل بعض تفكيرى المصحوب بغير قليل من النقمة والزراية .

ولعل اكبر ما دفع الى ذلك كله ان المرأة اصبحت مثار التفكير لدى أغلب أفراد المجتمع الحديث . فكل أديب أو فيلسوف أو اجتماعي أو محدث ، لا يخلو من

التعريج على أمر المرأة يتناوله بالنقاش والتحليل ، وكل امرىء حالما انبعث الى ذهنه رغبة الى ذلك زكت فى نفسه وألحت كل بواعث الاصلاح . وتبدى له جلياً أن هذا المخلوق على جانب كبير من النقص . وأذكر انى فى اختباراتى عن المرأة الغربية ، وجدتها تخالف الشرقية وتفضلها ، وخاصة المصرية ، وتسمو بكثير من المواهب والخصائص عليها . وأقول المصرية بالذات لأن من الأمم الشرقية من سمت المرأة بها الى ذلك الدَرج الذى وصل اليه الغربيون . وأن انعمنا البصر فى أدق مواطن الضعف واجلاها ، وجدنا ان ثغرة فى حياة المرأة لدينا ، لو امكنها أن تملأ فراغها بما هو أجدى عليها وأسبق الى رفعتها ، لنالها خير وفير . . . اما ذلك الذي ينقصها فى كل اطوار حياتها ، فهو ، الفن . . .

وبعث ذلك اللفظ الجليل وكأنما استجلاه بعد طول جهد وطويل عناء . أو كأنما تحتم عليه أن يقطع أوصاله

نبرات لتجلو لجميع الآذان المرهفة الى حديثه . واستخلص كل معارفه بعض الهدف الذى يرمى اليه حمدى ، وليس مرماه كله . وعند ما توقف عقب الافصاح ، ودّ كلٌّ لو ينطلق المحدث الى تفسير اكثر من هذا . . .

كان يترقب صاحبنا أن كلا سيرجح رأيه ساعة ينتهي به الأمر الى الافصاح عنه . وأنهم من الشباب المتأدب ذوى الحجى . لا بد يذهبون مذهبه ، من أن المرأة يزايل الفن حياتها وينتقصها حرمانها منه . وكان هو فنانا يتذوق الحياة كقطعة لا يقبل عليها أحد لو لم تختلط بها الوان الفن وتصبغها ولو لم تكن الحياة صورة للفن الرائع الصافى لما استساغها حيٌّ ، أو رضى بها أحد العائشين .

وهو في كل منازعه الذهنية يرجح هذا المبدأ ويعجب بمن ينادون به . فأوسكار وايلد أديب فنان لم نظفر بواحد مثله فى كل ربوعنا . ولو وجد مع هاردى وسواه

من الأدباء والشعراء ، لعرفنا كيف نتلمس الفن فى الحياة غاية ومبدأ . يقدر وايلد لأنه حمل فى حياته رسالة كهذه وعاش من أجلها ، وتقوم الدنيا فى وجهه وتقعد ، وتمتد وتتطاول عليه السنة سليطة تنازع عقيدته ، وتقدح سمعته ولكنه لا ينى عن ان ينادى فى جهرة ، يجب أن تقلد الحياة الفن ، ولا تكون الا صورة منه .

جالت بذهنه بعض هذه الخواطر كالاطياف الطائرة المتعاقبة ولكنه لم يطق السكوت بعد أن شاعت بعض معانى التساؤل الملح ، الممزوج بشىء من روح الابهام والغموض . قال . . .

ـ رحم الله أمة الرومان . شعب لو درى انه كان يعيش لغير الفن والجمال لاحتقر حياته وقرب نهايتها . قنع من وجوده بهذا القدر ليبعث مشاعل الفن فى الاكناف ثم يموت راضياً . أين لنا الآن بامرأة تتعصب للجمال الفنى الرائع تفنى في نشدانه . ولا ترضى بأن

تترك في الوجود اثراً أو تخلف وليداً الا ان يكون نموذجاً لتلك الفكرة وصورة لهذا الحلم وتظنون أن ابولو وفينوس وسواهم آلهة خلقها الازل وجاد بها الكون الناقص الى شعب ليبعثوا فيه رسالة الاصلاح والفن الجميل . . وجدير بكل ان يدرى أن الرومان عرفت الفن واستجلت فلسفته واسراره . ونطقت به أحلامهم الحيه ونفوسهم المتقده ثم أرادوا أن يغمروا به الحياة غمراً وأن يحتموا على الأزل أن يقبل سنتهم ويرضى بها . فخلقت فى أذهانهم صور هؤلاء ونمقتهم بذلك السحر الغنى المتخيل وفرضت على الحياة أن تقلدهم وتنتجهم ففعلت . وكانت الأم تقف أمام التمثال الاخرس المتحجر وهي فى شهور الحمل تستوحيه وتستملى منه فنا يختلط بكيانها ويسيل فى دمها وينبعث ليحرك أنفاس الجنين ليبدأ الحياة بتسبيحه الفن والشدو به . وأذا بتلك الروح تنطبع على الحياة وتسمو بها ، وإذا بهذه

الصور المنحوتة نشهدها بعدها تروح وتغدو ، بعد أن قلدتها الحياة .

ولِمَ لا تقوم المرأة لدينا بمثل هـذا . ألم يعرف أحدكم ان الام ان هذبت نفسها ، ونسقت ملامحها ، وحسنت كل ما يمكنها ان تبعث الحسن اليه ، خلقت لنا جيلا انطبع بذلك اللون الذى اختارته لنفسها ؟ . ليكن عهدنا الأول في تاريخ نشدان الحياة الفنية عهد صنعـة وتعمل ، فسرعان ما يعقبه آخر فنى خالص وستصفو تلك الصنعة ليحيا بعدها الحسن فنيا صافيا . ليكن الحسن فى مبدئه بتنسيق الحاجب وقرنه ، والعناية بالهدب وتزجيجه فقى اعقاب ذلك يستحوذ ويسود هذا الخلق كطبيعة .

ثم الى جانب أسباب الحسن الفائق والبدن الناهض الرخص التي اثق فى تمام تحقيقها ، فهنـاك الاسلوب الفنى الذى يكبت نقصانه من نواحى الجمال ويطمسها .

ألم يشهد أحدكم فتاة على جانب من روعة الحسن ثم هى الى ذلك ثقيلة الظل لا تجذب ولا تفتن ، ثم أخرى وأن لم تظفر بلمحة من لمحات الحسن فهى تأسر وتحب؟ الى متى يعد هذا الشعب الساذج دواعى الرشاقة والخفة والفتنة والدل كلها خلاعة مقيتة وخلقاً محرما .

وقطع الحديث رنين الجرس ينبىء بقادم جديد . فتنبهت الاسماع المنصتة إلى الكلام المنصب فى حماس وحرارة . وهلت مديحة . وأطل منها وجه صبوح طلول الشمس او احلى . ثم جرت فى خفة الفراش ورشاقته ، حتى ليحسبها الرائي انها طارت . وتبعها للحال صوت والدها ينادى . . .

ـ مديحة . . . مديحة . . . تعالى سلمى على بابا حمدى . . .

وكان حمدى فى رنوته الاولى قد مرت بخاطره صورتها كحلم تمثل فى ذهنه ذكراه . وتبدى له الوجه

كأنه طيف يمر ولا يعى به المزار تمام الوعى . ذكرى سمة لم يكن يدرى من اقرب عهده بهـا الا مرحلة الطفولة ثم ثمانية اعوام عبرها اليه الزمن فى لحظة ثم اخفاها عنه . وكانت تلك السمه فى طفولتها ككل الوجوه ليس فيها ما يغرى على التمعن . ثم رن فى أذنه صدى اسمها حلواً آسراً . كأنه وحده لحن يعشق . وتنسم منـه لونا من الوان الفن الذى ينشده فى المرأة من زمن .

وجاءت مديحه ، وسـارت الى حمدى في حركة رشيقة ، ولم ترتم بين أحضانه كما فعلت من قبل . ومدت يدهـا في دلال طبعى لتحييه ، وأحست بعدهـا ببعض الخجل لعله من استعجلائها للأيام السوالف ، فانثنت برأسها الى الأمام . وتهدلت غدائرها الفاحمة على صفحة وجههـا لا لتخفى من جمـاله ، بل لتخلق جمالا ثانياً . وكلمهـا ...

ـ لسّه فاكرانى يامديحه ... أنتِ كبرتى خالص ـ

فرفعت رأسها في حركة رشيقة ، رافعة معها خصائلها لتشيح بها عن وجهها ، فأطاعت . . . وكونت أطاراً فاحماً يحرس هذا الحسن ويحميه

ـ طبعاً فاكراك . . . وفاكرة حلاوتك ولعبك

ثم ابتسمت . وتنافر مع الشعر بياض أسنانها . ثم تناسق معهما حمرة شفتيها . وانتظم اللؤلؤ في استطالة حلوة وأطل على هذه الثنايا فاذا فلجة تنم عن حسن جديد وإذا روحها تطل منها عميقة بعيدة النور ثم هي منظورة قريبة . غائرة الى بعد ما بيننا وبين آدم وحواء . بعيدة الى ملمس الطبيعة الخالدة في عاطفتي المرأة والرجل منذ بدأ يعمر الوجود ، تسطر ذلك الاحساس الخالد المبهم ننكره حيناً ويقهرنا أحياناً . ثم هي قريبة الى حد أنها تتصارع مع جاحد ينكر عليها ذلك ولا يرضاه . ويعد ذلك الاحساس التالد زيفا لا يدوم .

وصرخ الحسن في وجهه ثانية فأفلتت لهته صوب

عيونهـا وإذا ما استجلبتا منه بصره ، راحت حيرتهما وعاودهما هدوء وركود . ولم يهجرهما مع هذا الاطمئنان ما خلقتا له . جملة من أحاسيس العالم تستقر فيهما ، ومنهما تنظر الروح أيضاً ولـكنهـا هنا لا تخدع ولا تمـارى . بل تدعوك الى ان تطمئن الى خباياها . وتكاد تتوهم انك تدرى كل أسرارها ولـكنها أسرار جمة ، يفنى العمر ولا يسبر تمام غورهـا . وأنت كلمـا أنعمت بها ، فاجأك سطر من سـطور الحياة جديد . وتارة تشهده كلحن ملك ، وأخرى كنشيد شيطان ولا تكاد مع هـذا كله ترهبها ، فأنت منقاد الى الاستسلام لهذا الدجن الحلو يسيل من النبع الذي لا ينتهى إلا بانتهاء الحياة . بل يخيل اليك أن الموت لا يقدر على أن يغيض هذا النبع . قد تموت ويتدافع سيل الحياة من نظراتها وحسب تلك المآقى ان يتآمر معهـا الأهداب والحاجبان لتبدو جميعاً كالجنة المونقة تزكو بها أطيب الروائح ولا يدرى الموعود

بها أى الآكناف تجود بالطيب

وأطل من الباب وجه جديد . فنادى صفوت

ـ تعالى يانوال . . .

وهنا جرت نوال الى والدهـا وهى ترمى بلحظها أختها كأنما تحسدها على انفرادها بهذا الترحيب . وهنا تكلم أبوها

ـ طبعا لسه ما شوفتش الصنف ده يا حمدى بك

وقدمها اليه . فأخذها وأجلسها على ركبتيه . وهنا سأل صفوت ابنته لتلعب على البيان قطعة . . .

وسارت فى تؤدة الى البيان وجلست الى كرسيه ، وفتحته ، ثم لفتت وجهها تسألهم أى القطع تعزف .

فهتف كل باسم قطعة . ورأى حمدى أن مديحة ستجابهها حيرة فى الانتقاء . . . فقال . . .

ـ اللى يعجبك يامديحه

وبدأ اللحن . وبدأت مديحه لحمدى ، بل لـكل

الجالسين لحناً جديداً . ويسمعها المرهف ، أو يدفع الى رؤية أناملها فلا يدرى كيف تجود العبقرية فى هذه السن المبكرة بمثل أخلد الألحان . وخيل الى حمدى أن آلهة اليمبوس يبعثون اليه مسيل الأوتار يتسقطها فى الوادي .

وتجاوبت أصداء الحيرة فى نفس مديحه ، حيرة أربعة عشر ربيعا تتوثب فى مثل وسعة الفضاء تبتغى استقراراً . وفى كل وثباتها تبعث لها فى الوجود لحنا فيه حدة العاطفة ورقتها وجموحها ، ثم يكسوها جميعا تواؤم النشدان الحلو يفلت من قلب المرأة على غير وعى منها مبهما .

وفى لحظة من لحظات العمر يوافى الخلود مرة واحدة على اكبر تقدير فى فترة تحلو الحياة فى عينى صاحبها وفى نفسه ، وفى قلبه فتنقلب وحدها لحنا . أو فى لحظة هى نقيض ذلك . وهنا يتطلع المرء الى الافصاح عن

جملة ما يشغله فيبعثه لحنا ، أو أدبا ، أو فلسفة ، ولكن كلها تائهة . وان لم تتوفر الاداة لديه ، انفجرت فى نفسه وشاعت فى كيانه لتسعده حينا أو لتشقيه .

واشتبكت مع اللحن هذه اللحظة التائهة ، فاذا كل ما تعزف به مديحة لم يكن قطعة منغومة فحسب ، بل روحا ، وقلبا ، وحيرة وعاطفة ، وكيانا ينشد استقراراً ، وتراءى له من بعيد يقربه ويأتيه .

وانتهى اللحن ، وما انتهت من الأسماع اصداؤه ورنينه . وما كان أحد قد تبقى فيه من البصر ما يشهد به مديحه تعزف ثم تنتهى . شهدها أغلبهم فى لحنها . شهدوها كالحلم الطامح تكتنفه حقيقة . وحتى حمدى لم يدر من أمر انامليها الرشيقة ، أو عيونها حينما كانت ترفعها لتسبح في جو غير محدود ، كأنما لتقرأ خطوط اللحن من بعيد . لم يدر ذلك الا بعد أن الهمه النغم به واوحاه اليه . تخيله ولم يلحظه .

وأعقب النهاية تصفيق . وأحنت رأسها شكراً . ثم دفعتها ثانية الى الوراء لتمنع شعرها الملازم فى الحاح حركات وجهها .

وبعدها انطلق صوت رفيع صغير تتجسم فيه كل معاني السذاجة الحلوة . . وكأن علائم الرجاء كانت تجول فى القول اذ سألت نوال . .

ـ مديحه . . . غنيّ

وابتسمت مديحه . وابتسم أبوها . ولم تفه بكلمة يتلمس منها الرفض خاصة بعد ان ساد المكان تلهف شائع الى الافصاح الجديد تجود به عليهم مديحة . وانبسطت الاسارير ترحيبا بالتغريد الموعود . وكان على الوجوه لون حنين صامت تكاد تنبىء عنه نظرات أو شكت تتخطف اللاعبة ، ولكنها ترتد فى غير يأس وقنوط .

وتدفعت الى الوجوه وشاعت كل دواعى الطرب

ونشوته ولم يكن قد صدح البلبل او غرد بعد . كأنه قد تسرب الى نفوسهم الهام حلو من ذلك العنصر الفنى الذى يختلط بالحياة فيبهجها ويمنحها الرونق الأخاذ . وكانت رسالة الفن التى أفصح عنها مضيفهم ، وغمرت بها الأفئدة ، قد تلومت بها وتشبثت أذهانهم . حتى اذا ما وفدت مديحة انطبع رأى حمدى وايحاؤه الوليد وبات عقيدة راسخة . والتمحوا منها وهى تعزف اللحن على البيان نغما حلواً يسيل من نبع الفن ليطلعهم على جماله واسراره وخباياه . ونفث فى اذهانهم وشواعرهم ان المخلوقة نطعة من الحياة تمردت على الواقع المملول ، وافلتت منه الى ناحية زاخرة بما يزكى استساغتها ويبعث الاقبال عليها . حتى حمدى استقبل ذلك الخلق الجديد المتوائم المشتهى في كثير من الرضى والابتهال .

ثم غردت . . . واستنامت أسماعهم اليها . وراح كل يسبح فى أجواء يستعرض فيها كل ما عهده مما

سلف ؛ أو يحلم بما يتمناه من أسباب السحر والجمال وما مر به من صوره . وأثار أجمل الشدو أجمل الذكريات . وكانت الاخيلة صافية مهذبة لا تستقر فيها الا المعانى الجائلة ، أما صاحبها فقد لا تجهد لتميه ما دامت تستمتع بفيض الفن والألهام على مثل هذا النمط العبقرى السامي .

ولم تشغل مديحة طويلا الا خيال حمدى . عزفها وشدوها وقوامها وملامحها وكل ما يشاطر هذا الكيان ليجلب اليه الفتنة العامرة ، كلها جالت بخاطره واسترعته وتحركت لها فلسفته القديمة . وما كان يحن الى ذكرها وان يكن الجو المكتنف يسمح بها ويوحى . بل قد يكون استعرضها فما دامت عتمتها وسط الوميض شيئا . كان قد تمثل له فى مديحه فلسفة الاجيال كلها . مامضى منها وما سيعقب . وتمثل له اللون الذي يشغل منه نفسه كشائبة كدراء أو كالعثير الاغبر قد علق بشطر

من عمره . وبدا له ان هذا الشطر تافه مقيت ولو ساد أجله كله ، الا تلك اللحظة التى نعم فيها بالحب يهوم على روحه ويسمو بها . واحتقر شوبنهور وبرنردشو وغيرهم ممن قلب الوهن حياتهم تشاؤما . وتخيلهم فئة تضر فلسفتهم اضعاف ما تجدى وتنفع . وادرك ان هذا الشذوذ المتأصل الذى يعلق بالنفس فيدفعها الى تشاؤمها يعفو لو لم يحيه التمادى .

وذكر للحال ان شو نفسه أحب يوماً ما ولا يدرى فقد يكون حبه باقياً كامناً فى أغواره الى اليوم . غير أنه لم يغلب بحبه هـذا الطبع البليد والنزعة العاتية لديه . اذ كان يحرم على نفسه لقاء الكوكب الذى يهوى وان كان أبهر الكواكب جمالا . وتجسم لحمدى هذا الخور النفسى فلم يرض به . واحتقر نفسه اذ كان يقدسه يوما ويبجل أصحابه .

وعلل تشاؤمه بأنه بنى على أنه لم يشهد فى المرأة

فنا قبل اليوم . وها هو قد وجده مصوراً ناطقا فائضا فى مديحه . .

وأكملت شدوها واستأذنت لتخرج . وهموا جميعا بالانصراف بعدها إلا حمدى . فقد ألح صفوت فى بقائه ، وأظهر هو أن هناك أمراً سوف يتكلم معه بشأنه .

وبقيا سويا بعد خروج خلانهم

وتكلم حمدى

ـ هل تشعر يا صفوت بكامل السعادة فى حبك وزواجك ؟؟ ...

قال بعد أن ضحك

ـ طبعا سعيد جداً : انت اسه مش عارف ده الى الآن ! . . .

ـ بدأت أحس رغبة ملحة فى أن أغير مجرى حياتى . .

ـ يظهر انك بدأت ترغب في حب وزواج .

ـ أحببت وانتهى الأمر

قال مقهقهاً

ـ وفلسفتك القديمة عن المرأة ؟ . . .

ـ عفت

ـ والفن الذى تنشده فيها ؟ . . .

ـ وجدته . . .

ـ كاملا كما تبغى ؟ . . .

ـ نعم . . أو يكاد يكون كذلك . هى صغيرة . أظنها فى الرابعة عشرة ولكنها ناضجة ناهضة . لو تقدم بها العمر عاما آخر لاصبحت آية

ـ وعزمت على ان تفاتح اهلها ؟

ـ نعم افاتحك لانك ابوها

ـ تقصد مديحه ؟ . . .

ـ نعم . . . هى بعينها

وابتسم صفوت بعد ان بدت عليه علائم الدهشة

ـ ايه ياصفوت ؟ اتجدنى غير جدير لها ؟

ـ العفو ياحمدى . . . لا . . لست اقصد وانما مديحه صغيرة . وقهقه ثم اردف

ـ دى زى بنتك ياشيخ ! ! .

ـ نعم ولكنها الوحيدة التي خلقت الحب فى قلبي وبعثته . . فهو لها . . .

ـ تنتظر عاما ياحمدى على الاقل حتي تكبر ؟

ـ واكثر ان رغبت فى الزيادة .

ـ اذاً اهنئك . . .

وتصافحا فى حرارة صادقه

ـ اذاً دعنى انصرف لافكر فى أمر الخطوبه . . .

ـ متى تقدم الشبكه ؟ . . .

ـ غداً . . .

وانصرف ليسعى الى تحقيق الاماني

على المنبع

— ١ —

.... وناحت نوحها الصامت المكبوت. وغزرت فى نفسها المحزونة جملة من دواعى همها المقيم وأساها الملح. وشاءت أن تبكى ففى البكاء فسحة للنفس الحسيرة وفرجة. ولكن كأنما أصاب باطنها شحٌ فما يجود بعبرة روحها تبكى وإن لم تهم الدموع السواجم أو تجر شئونها صيبا وتهتانا . . . وجمدت العبرات ليتقطر بدلا منها ماء الحياة.

استمرت على حالها تلك أياما عشرة. تدلف نحو ربيع العمر وفى إثرها خريفه وعلائمه. ما تخطو قدما حتى يخلف أثراً مقيتا استواها فى تلك الفترة من أجله ذبول عشرة أعوام. بل لو أن شجنا أرفق من هذا قد غمر كيانها المشبوب لما مسها مثل هذا الضر والبلاء علتها غلالة من شحوب الأكدار لا السقم. ثم أخرى فى سمرة واهنة يقتم بها ما حول مآقيها. ثم ثغرتان

بخديها يفيضان بسائل السحر ، منحة من الحزن لا الحسن . ثم ملامح نسقها ألم مضن ضنى ، فكادت لتآلفها على الافصاح عنه تدل فى جلاء على عمق احساسها وفداحته .

وتبدت رغم ذلك فاتنه . يروعها الحزن فتأسر . ويهزل منها كيانها الغض ولكن لترفع الروح وتسمو . وجمال الروح يخلقه الألم . وإن كانت معانى ذلك السحر النادر تستسر على صاحبها فهى تبين لمن يدرك ومن لا يدرك . تشيع على صفحتها بمثل ما يتشح به وجه الحالم ساعة ينتشى بجملة الآمال ، فما يعود انسانا كما كان يرى ، بل تزدحم عليه معانى النقاء والطهر والاستسلام والتشبث بكل ما هو علوى جميل .

وراحت بعد هذه الأيام تبكى . ووكفت جامدة العبرات سيولا ودجونا . فكان رائيها يحس صورة قطعة من الجمال القارط الصافى . ولو أحس الى جانب ذلك

مشاعر الاشفاق والعطف فلانها تحيا مع من يحيون على الثرى . أما ذووها ، فلو أن أحدا انبأهم بأن ألما يجول في نفسها ويصول لما صدقوا إلا أن يكون هذا دلالاً منها وإغواء ، أو نوعا من الاحاسيس الطارقة تفجأ الفتاة قبل زواجها ، فتمنحها شيئاً من رجاحة العقل ورزانته وغير قليل من الدعة والهدوء .

* * *

وطلّ عليها السحر وهى مضطجعة على وثيرها ؛ وانبثقت خلال الاستار والسجوف اشعاعات مبهمة غامضة عميقه . وأحست حولها صمتا ووحشة تموجان فيغمران كل ما يحوطها بألوان من العمق شتيته . واستشعرت تواؤما بين قلبها الوجل وبين ذلك الوجود العامر . كل منها حائر وجيل . كأنما الطبيعة تحلم في تلك الفترة ، وكأنما دعتها لأن تحلم معها . وما أحلى الحلم يكسوه أمل

فى النوال أو حيرة. كلاهما يمنح جمالا . أما هى فحيرتها لانها تجهل ما يخفيه لها ذلك اليوم المنكود الذى شمت بوادره . وأما الطبيعة فكأنهـا حيرى اذ لا تدرى ما تخزنه من الاحداث لها . وأطلت تتمعن وتتسقط من كل المناحى عونا. حثت الفكر والخاطر فاذا بهما يبشران بثوره . وقامت إلى النافذة تستشف من وراء سـترها بصيصاً يهديها ويرشدها ، فاذا السحر يفنى رويداً رويداً واذا الفجر قد اكتسى من البزوغ رواءً . وكأنما السماء قد جفلت من حيرتها المبهمة على هدى الاصباح واشراق ذكاء . وأحست هى بغير الرضى . لم تشرق بعد وهجة في نفسها . ما زالت العتمة تغلب ضوء مشاعرها الجمـة فتفنيها وها هو الصبح يسـير إلى هداه وإلى بلائها . فياليت الوجود استمر سحراً مبهما حائراً . . . وبقيت وقتذاك وحيدة فى شجنها . ولو أن أحدا شاطرها الحزن الذى تحمل لوجدت منه بعض العزاء. بل الكل

حولها مرح يفعمه البشر والجزل . أهلها يترقبون ساعة زفافها كأحلى الأمانى والآمال .

وأصاخت أذنيها قليلا فاذا بحركة مائجة تنبىء بأن كل من بالدار قد صحا وقام . واليوم لديهم جليل موموق فكلهم به سعيد .

ـ رباه ! . . . جحيمى نعيمهم ؟ . . .

ورددتها فى نغمة مريرة . والنفس بعدها أحست انها خائرة مكدوده وسرعان ما تردد دمعها فى المآقى . وراح وجهها تصرخ ملامحه بعلائم التوسل . واندفعت تنتحب فى مثل نشيج الطفل الغرير .

وسمعها ذووها خارج الغرفة مما خفّتْ فيهم معانى الحبور . خالوا عبراتها يهمى بها فرط الحياء .

قالت عمتها

ـ ماذا يبدو من بتول تزف عشية إلا أن تبكى نهاراً ! . . .

وأعقبتها خالتها...

ـ بل هو فرط الحنين

ثم اردفت إحدى لداتها الحميات

ـ لعله شوق عنيف انسلّ الى مخيلتها شبحه بعد أن خيلّ اليها الفرقة بينها وبين أهلها.

ثم أفصحت امها اخيراً

ـ لا.. لا... هى كمدة رفيقة استوتها بعد أن اعتزم والدهـا أن يفرق بينها وبين قطتها « لولو » وكلبها « هاري » إذ أن عروسـها يمقت هذى أشـد المقت وانكاه · وإن كان طيف من هـذه الاطياف أو هى كلها قد تراكبت لتنفث فى نفسها الأسى ، فخالـا تقشع وتزول . لتبك اليوم ففى الغد نعيم طريف وهناء جديد. وطية الايام لا تبدو منها انها تنتوى لهـا الغدر أو الخبّ أو الخديعه . مال ، وجاه ، وصولة ، وسؤدده ولو تكاتفت مع الخصاصة أرباب الشر كله لما قدرت أن

تفوز منها بشيء أو تنال . فماذا تروم مزيداً وتبتغي ؟ . .

ـ أنعام يا أنعام . . إصحى يا حبيبتى . . .

وسمعت أنعام هتفة باسمها تسترق الى اذنيها الخطى فعرفت منها نبرات أمها . واستشعرت منها نغمة الطرب تجول كما لو كان النداء شـدوا . ولكنها أحست على الأثر احساساً طارقا انبعث فى نفسها . لم يكن احساس الرضى ، ولا هو احساس المقت والكراهيـة فهى أنبل وأسـمى من أن تبغض أمها . ولكن تبدت في نفسها مشاعر عطف عليها ، اذ عدتها لا تدرك ما استسر فى نفس ابنتها أو إن ادركته فهى ترتضى خـديعة نفسها كيلا تصدق حدسها .

وكاد صائح من أعمق نفسها يهتف ولكن المعانى التمعت دون ترديد . وبعد أن صمتت فترة قصيره ، شجعها الأسى فقالت في حسرة كأنما تحدث نفسها

ـ أماه . . أماه . . حتى انت ! . . يملؤنى الشجى وتطربين ؟ ما يفهم الانثى الا مثلها ! ! . . .

وعجبت أن تتغير طبيعة المرأة وتتنكر بالجهل احيانا كهـذه . فأمها ما زالت تكمن بها انوثتها يوم كانت فى مثل موقف ابنتها . ويوم نودى بها لتزف على بلعها انها أحست ولا شـك بعض مطامح الفتاة فى عنفوان الشباب تتدفع لتبتغى تحقيقاً . بل ان آمال الطفولة ومثلها العليا ، التى تملأ فراغ ذهنها لجديرة بأن تستعرض فى مثل ذلك . وأول ما ترتجى الفتـاة فى الزوج شباباً ، وعنفوانا وسنا مبكرة كسنها ، أو بينهما بون غير شاسع ثم قوام ممشوق وقدٌ تزينه رجولة مستحبة . وإن لم يكن فلا أقل من هبات تشعر وهى خفية بميل وتبادل مومق .

تلك خواطر النفس يوم يقدر للفتاة أن تتزوج . وتلك سنة سطرها الخالق فى سجل الخلق لينهجوها ما

بقى البشر وما بقى النوع . وهذا هو العرف ما ينفع للنيل منه مدنية أو تقليد أو تطور أو سؤدد أو غنى أو جاه . وفى نقضه هدم لأصول التشريع التالد ومقوماته . لِمَ يحرمون على الأب أن يتزوج من ابنته ، أو الأخ من اخته ، ويحلون اليوم زواج رجل من مثل حفيدته ؟ ويزعم الناس انهم جادون نحو إحراز مثلهم العليا ، وانهم ينالون منها واحداً بعد الآخر ، وهم يدأبون على فعل الدنى فى أقدس أسس البشرية وأرفعها ؟

وتطاولت خواطرها وتواردت . ثم اهتدت الى أن تفزع عن هذا وتجتويه . فماذا تفيد من الافصاح دون عمل . وللحال جنحت الى التخلص من هذا الضيق الذي يفعم نفسها . والذهن خير مهد الى وسائل النجاه . وكم من فتاة وامرأة تنادى برسالة كهذه ، فما وفقت إلا الى اخفاق . واذ واتاها هذا الخاطر احست بعض السلوان .

— ٢ —

اليوم صحو عليل . والشمس تخطو حثيثاً الى كبد السماء لتتوج الطبيعة بكل ما تملك من سنى واشعاع . ولو أن النسائم قد احتجبت يومذاك فلم ترف ولم تعبث فى رقتها ودلالها ، إلا أن الوجود لم يفارقه من الجمال بعض كماله أو يغيب عنه . فكأنما المرء يكتنفه فيه صمت الليالى وسكونها ووحشتها . والمكان يحكى فى ذلك قرية هادئة مهجورة ، وان غابت عنه سذاجتها فقد اكتسى من المدنية أبهة وبهاء . كله دور نخيمة تتناثر كالانجم على صفحة فسيحة بعضها تكسوه صفرة الرمل ، وأخرى سمرة الطرق المهذبة النظيفة ، ثم بقع يمنحها النبت خضرة والزهر ألوانا عديدة . تلك جنان تحتضن كل قصر فلا يزايله من أجلها الرونق واللألاء حتى فى وضح النهار . وها هو الوقت ظهيرة ، وكأنما المكان لا تسكن به نامة أو تؤمه نسمة .

وفى أحد هذه القصور ما زالت تجلو بداخله بعض معالم عرس . وأخذت تتخفى برحيل الأهل والاقرباء بعد الزفاف بيومين . فكادت تكون انعام في بيت زوجها ذاك اليوم وحيده ، لا أحد يؤنسها بحديث أو يرفه عنها . وزوجها شديد التراخى كثير النوم . قارب الوقت الظهيرة وما زال نائما فى غرفته . وهى وإن كانت مضطجعة فى مهادها الى تلك الساعة فما زار النعاس جفنيها إلا لماما . وما تذكر انها هجدت خلال الليلة الفارطة حتى تنصف النهار الا ثلاث ساعات . وأنّى يقبل عليها الكرى وقد أرق الخاطر وثار مكمن الاسى وتدفعت الى الذهن الهواجس ؟ . . .

ودقت الساعة إحدى عشرة ، فانقطع حبل تفكيرها ووجدت أنها تفزع فى تلك اللحظة عن الفراش الملول فقامت في تراخى بدن متعب منهوك . وتنعمت حواليها وللحال تدفقت ثانية الى ذهنها جملة خواطر . . . كيف

أن تلك البيئة جديدة ، والمكان جديد ، وكل ما يحويه وتقع عليه العين طريف . ثم حياتها بأسرها قد اتجهت في طريق جديدة موهوبة . وكيف يزعمون أن غاية ما ترتجيه الفتاة هو هذا المصير . وهل هذا هو وادى الرؤى والاحلام الذى تومق اليه النفس وكان يحن الى ذكره القلب ؟ . . فها هى قد نالته فما ظفرت حتى بلذة الذكرى . كل أحلامه مزعجة لا تبشر إلا باكدار مائلة وهموم مقيمة . وهل قدر لها حقا أن يمثل أمامها ذاك الحلم المرهوب دوما . وان ينقلب واديا للحياة . وما كانت تظفر بمسول احلامه الا قليلا ، فاذا ما تحقق الحلم وكان مزعجاً يفيض بالألم الكافح ، مثل وكان للمرء نذير بلاء ! ! . وعادت تفكر من جديد في سبيل للنجاه . ولكنها ساعة تذكر خاطر الخلاص تضيق الحياة الطلقة فكأنها أمامها كفة الحابل .

وبينما هى كذلك اذا بالباب يطرقه طارق ، ثم

يدخل . وتقدم نحوها زوجها العزيز مبتسما . واذا ما قاربها طوقها بذراعين مرتعشتين دبت فى احداهما آثار الشلل . ولو كانت واحدة فى غير رزانتها لجفلت وصرخت . ولعل سكونها قد وافى لأنها لم تتمعن فى وجهه وتحدق ، بل نكست رأسها حياء وخجلا . وبعد أن هوى يلثم الشفاة والثغر والوجنة والعين قال

ـ انت فاتنة حقا . . .

أجابت فى مرارة لاذعة

ـ تمنيت ألا اكون كذلك

ـ أنعام ! . . هل تحسين ألما ؟

ـ وأحس معه ضيقا ثقيلا . .

ثم خطت نحو النافذة تبتغى فتحها

ـ الى أين يا أنعام ؟ . . وقالها فى ذعر رفيق

أجابت

ـ أريد هبة من النسيم . . ساختنق .

وفتحت النافذة بعد ان أزاحت سترها . ثم وقفت تنظر خارجها حائرة كأنما تنقب عن مفقود فى الأثير تذرع اليه بصرها . وأرادها تقرب منه ثانية فى لهفة مزعجة وفى نبرات أقرب الى روح الأمرة منها الى أى شىء آخر . وعادت اليه كما أراد وللحال بسط ذراعيه يخال أنها ترتمى بينهما . . فما فعلت

ـ أنعام . . أقريني . . هات قبلة يا منيتى . . .

ولم تجبه الى ندائه . وهوم على المكان صمت القبور . ولما توقفت خطا نحوها فى لذة عجيبة أهم ما تصطبغ به لون الشباب الراحل الذاوى المتكلف . واحتضنها .

ـ نونو . . . تتمنعين دلا ؟ . . . أحب هذا السحر منك . وحن الى حديث الهوى . وتذكر فى ومضة البرق ثلاثين عاما مضت . أو أربعين . يوم كانت تفيض على المشاعر المشبوبة نقائه فتكسبها ثمرة ونشاطا .

ويروح القلب فى مثل حميا اللهب الصافى ينبىء فى إلمام بما يكمن به ويحتويه . وأيقن أن هـذا قد عفا وعفت أيامه . وأنه يمثل دوره اليوم فهو مخفق لا محاله .

وبدا حديث الهوى من ثغر الكهل المهرم عجيبا . واستجلى فيه برودة الموت كأنما هو حـديث محتضر . وفجأة انطلق

ـ أنعام . . لا اريدك تفتحين نافـذة أو تطلين منها . . وصمت برهة ثم أردف

حبيبتى . . أجيبى . .

وازعجتها تلك القالة وعجبت لها . واسرت لنفسها

ـ خاتمة البلاء غيرة ؟ .

* * *

وامتدت راحـة يده الى وجهها وتلمسته فى لين ورقة وهوادة واجتذبته الى صفحة وجهـه . حتى اذا تلامسا ، ضغطه اليه فى رفق وحنان . وكان أمامهما

المرآة تشهدها . وانحرفت عين « أنعام » صوب صفحتها التى أشرق عليها صورة وجهه يلاصق وجهها . ما بهرها جمالها ولكن أصابها الذعر من وجهه . قطعة من الفن الالهى الخالص الممنوح فى ندرة ، والى جانبها فوضى مستحكمة واضطراب . وراحت، هى لا تتمعن فى سمتها بل انتقل بصرها الى سحنته . لأنها ما كانت تبتغى موازنة . وانما أمرت دون وعى بصرها الفاحص، على بدرها المشرق المنعكس أو هو استملى منه لمحة ، وانبعث فجأة صوب ذلك الوجه المتيم الملاصق .

ولم ترهبها الدمامة بقدر ما أرهبها العمر المسطر على الصفحة الذاوية . اما هى فما رأت عمرها الغض الناضح جليا وما كان المشاهد يقف على حدوده فهو طلق هارب لم يقيد بعد . وان قيل أن الزمن سطر لها سبعة عشر ربيعا ، فلا تزعم الا انها بداية فى عمر هذا الشباب الملتهب المتفتح الناعم . وإن كانت أيامها الأخيرة التى

تفاقمت عليها من بدايتها أوصاب النفس وهمومها قد دفعتها فى طرق العمر عشرة أعوام ، إلا انها بدت غضة يانعة مزهرة ما يطبع عليها أثر ملح مما تجلبه السنون . أما هو فقد قارب الستين . . واخذت الايام تخط العام تلو العام باحرف من شيب وتجميد .

وكانت المرآة صافية صادقة ، فاجتلى منها لعينها كل ما خلف الزمن على ذلك الوجه علائم سطوته وجبروته على البشر العاتى . وإن لم يكن الزمن قد قدر على أن يكسر صلفه ويهدم رغائب النفس الجامحة فى غير تعقل ورزانة ، فما هنالك سوى فضلة حقيرة تنزو سراعا الى الفناء وان تلومت متشبثه لماما بدعائم الحياة .

أوَ ليست النفس في موقف كهذا تفصح فى بذل رخيص حقير عن الثورة فى وجه خالق كيانها ، وفى وجه القدر الذى تسلطه الطبيعة العادلة لمنح الفرد ما يحق له وليس ما يطلب ويشتهى ؟ وإن أفلتت تلك

النفس من عقالها يوما ، مهيأة الى أن تعود الى تحقيق ما مضى وكان ، لما انبتت سوى تمردها وخورها وعدم كما لها لهـذا . وفى وادى النفوس الكهلة يُقذف فى قحولتها بحسان وادى الشباب وحوره وغيـده ، تلبية لنداء النزوة الشاذه ، وليموتوا مثل ما يموت قاطع الفيافى لو سدت فى وجهه أسباب الرى وسبل الحياة

ويروح الآباء والامهات ينكرون أطوار كل مخلوق وقيمة كل طور منها . ينكرون ان هنالك طفولة ، وصبى ويفوعـة وشبابا . . ثم آخرها كهولة يلتصق بها ويستحوذها رويدا رويدا فناء . وان كل مرحـلة من هذه لها مطالبها ولهـا حقوقها المسنونة . وينعكس منها قبسات تشع على حياة المخـلوق من وهج الطور الذى يشغل . فالطفولة تمنح حياة المخـلوق غرارة ، والصبى عذوبة وسذاجه ، واليفوعة حرارة ومحبـة ، والشباب لهب وتوثب ، والكهولة برودة وفنـاء عاجل . وينسى

الأهل هذا . ويروحون يلقحون النضرة والاهاب الغض والتفتح المزهر والشباب الحلو المتوثب بسيول الموت . . ويقولون بعدها . . هذه حياة جديدة

* * *

وراحت أنعام تهذى وقتذاك خواطرها بكل هذا . وتتسمع لصوت ذهنها وهو يبرق بشتى الوان التفكير الثورى العميق . وما تحركت عينها صوب السحنة الجعدة المشرقة على المرآة الا وقرأت في خطوطها الغزيرة معنى وفلسفة جديدة .

ولحظ زوجها شرودها . فناداها وما زال يضغط براحته وجنتها ويطوق بذراعه الأخرى خصرها .

ـ أنعام . . . أنعام . . قبلينى . . .

وتبسم بسمة عريضه . ورفعت هى عينها الحالمة الثائرة الى فمه لتشهد كيف يتحدى هذا المخلوق القدر ويتعس فتاة مثلها . نصف اسنانه اسقطتها الأيام فاستبدلها

نضارا لم يتركه الزمن دون أن يطمس لقـدمه بريقه . ونصفها الآخر ضاع بريقه وعفا لونه العاجى .

وفكرت

ـ هذا فم قد لا تحبه امرأة تناسـب عمره . ولا تهوى لثمة . .

وبدا لهـا فيه سم لغرابته عنها . ما شهدت قطرة من شباب فى ذلك الزوج تشفع له ببعض القرب منها . يريد ان يلثمها لثمة الوجد والهوى ! . هذا يروعها . . . وساعة طرق ذهنها أنها حليلة هـذا البعل الذى يحتضنها وأن لا مفر منه ، زايلها وعيها . . .

وكأنما الزمن لم يسعدهـا بأن تغمرها تلك اللحظة الاخيرة طويلا فأفاقت لتلمح من جـديد ذاك الرجل المتهدم البالى وتشقى به . وفى الوقت عينه اعتزمت أن تتخلص منه . فاما يقضى ، وإما تموت .

— ٣ —

خرج الزوج صبيحة اليوم الرابع من زواجه ، وقصد غرفة زوجه كعادته فقابلته في طريقه رسالة موضوعة على منضدة . وللحال فضها فكان بها

* * *

أبي . . . وأمي

هذا بلد لا ينفع فيه نداء المرأة لتنال حقا من حقوقها . نَعِمَ أهله العتاة بالظلم واستمرءوه فلا يرجعون . ووقفت هي تصلد للجهاد فما قدرت لأنها عزلاء . واستنصرت بكل ما تملك فما أفادها بكاؤها والعويل . حتى اذا ما قيض لها القدر بطلا ينشلها ويحميها ، قام ينادي ويهتف أن حرروا المرأة وامنحوها حقوقها ، فسخر منه أغلب القوم وهللوا تحقيراً . وقام آخرون ينادون لانصافها فكأنما أحبوا لها منكم أن تسيموها الخسف وتذلوها

لن ينصر الله قوما يغتصبون من الضعيف عزته ويذلون كرامته . ولن ترفع هذه الامة المغلوبة رأسها، ما دامت تقوض ركن المرأة بها وتهدمه . أقامه قوم غيركم فغنموا وعزوا .

هى في هذا البلد المنكود سلعة يقتنيها صاحب المال ولو كان بينه وبين القبر ليالى وأيام . ويحظى بها بعل تمجه وتكرهه لو ابتغى هو ذلك .

غير أن المرأة ان فقدت كل حقوقها ، ولم تنعم بالسفور المطلق الذى يتغنى قوم بأنها نالته خدعة ورياء، فما أجدرها بالا تتهاون في حق فيه حياتها . هو حق الشباب .

ان احتملنا وصبرنا من اجل سواه فلن نرتضى الحرمان من هذا يوما واحدا .

هذا زوجي . . . بل هذا جدى . يحرم على أن أرى أحدا أو أحدا يرانى . بل يكاد يغار على النسائم

تلفحنى أو الاخ يلقانى .

واليوم اعتزمت أن أنجو . وليس أطيب للمرأة من الموت منجى وخلاصاً . لتتكدس أجداثنا ما دام النضال لا يفلح . ولنترك الحياة للبشر الآتى ما دمنا نصرخ فلا نجاب . وقد يأتى يوم يحس قومى فيه أثر الشهداء لأمت اليوم فداء ان كان ينفع ابناء جلدتى الفداء . . .

أبى . . وأمى . . وزوجى . .

فى عنقكم اليوم دمى إن هدرته . أما روحى فسوف تترك عالمكم حانقة ساخطة . . .

أنعام

* * *

وما كان يكمل تلاوة الرسالة حتى جرى الى باب غرفتها ودفعه بما بقى فيه من قوة واهنه . . .

ودخل فوجدها قد خنقت نفسها . . .

فنان

ـ اكتملت القصة ؟ . . .

ـ نعم . . . أتممتها ثم جئت أقابلك

ـ طبعا طريفة !!...

ـ نعم وعجيبة أيضاً . .

ولم يبتسم كعادته إذ كان يتبع كل خاطر طريف بيسمة . .

ـ تضحك سامعها ؟...

ـ تضحكه ولا شك

ثم بقى رزينا هادئاً كأنما كبت فى نفسه كل أثر للمعانى الجديدة التى تدلف بها أطراف الحديث . فلاحه مستقرة على ذلك النمط الحالم كأنما أمر إدٌّ يزخر به خلده ويحويه جنانه . يعينى بعض الوعى ولكنه يستعرض أمراً سواى

سألته . . .

ـ فيم تسبح ! يبدو لى أنى أثرتك فمعذرة . وماذا فى يدك ؟ . . .

ـ صورتها . . .

ـ من ؟ . .

ـ صاحبة القصة . . . هل تود رؤيتها ؟ . . .

وأحسست للحال أن بالأمر سراً . وأن قصته هذه لا بد لها شأن باق تهفو لذكره نفسه . فهى ما زالت راسخة لم تبرحه بعد .

كانت الصورة مطوية ، فأخذتها فى لهفة بادية كأن فيها قبساً استجلى منه ما خفى واستسر .

لم اكن أعهده قبل اليوم يكترث بأمر قصة يمثلها . بل هو اعتاد هذا اللون من الحياة حتى احالها مسرحاً لا يكاد ينتهى من موقف حتى يغريه آخر . ويكاد يجزم لى دائما أن حياة الفنان لا تقوم إلا على أساس ملموس مدعم كهذا . وهو موقن ان شكسبير

لم يسطر بعض رواياته الغرامية إلا بعد أن كان لها فى وجوده أثر الحقيقة النابضة والواقع المطروق . وإنه فى شبابه المتفتح المتفجر استقبل الحياة كما استقبلها فى قصيدة أدونس وفينوس فى شىء من المجون المستحب . ثم غالب قصائده الغنائيـة لم تكن إلا الصدى الحاكى لفترات الجموح الوجدانى التى تآلفت على الافصاح فيما بعد ، بأروع ما خلف الشاعر الكبير . وجوت كاتب الالمان لم يبعث الى الوجود آلام فرتر خلقـا متخيلا أبدعه التصوير وعمقته الملكة الشاعرية فحسب وإنما كان هو فرتر وتألم ألمه وآب بالحسرة كما آب بطل قصته . ولامارتين وموليير وغيرهم . وقد كان الاخير يخدع نظارته يوماً على المسرح فاذا به يعجز عن أن يدارى حقائقه المريرة واذا الحياة تطل عليه خلال الستار وتصبغ هذا الوجود الضيق فلا يعود يجديه الوهم ويقضى على المسرح لان خاتمته الحقه هى أن يموت .

فحياة صاحبي قطعة من المشاهد غير المملولة لكثرة ما تجود أيامه بهيج الحوادث ومعقدها . ولا يكاد يفرغ من مغامرة حتى تحدو به نفسه الجامحة وذهنه الى أخرى . وإن لم تجد بها الأيام سعى هو في طلبها . ثم يقوم بالدور ولا يتأثر به طويلا . غاية ما يتركه من ذكرى لوحة فنية مفصحة ، أو قصة رائعة الادب ، أو قطعة لحن تلتحم فيها أنغامه مع جملة الشواعر الغامرة التى تفيض بها لحظات تمثيله . وينسجم كل هذا فى وحدة ينطبع عليها سمة نفسه تتسم بعلائم الفن . مرهف الاحساس الى حد . ثم هو بعد هذا لا يبارى في عدم الاكتراث الباقى في قرار بعيد من نفسه .

وهو لهذا يثوى فى مسكن كنت أعجب كيف يرتضيه على غرابة طباعه . بعيد عن مكمن الحياة الصاخبة الثائرة التى أثق أنه يحن اليها ويتقرب . فى بيئة هادئة ساكنة تكاد لا تفترق عن الريف الصامت

جل هي صورة منه . وهى تلائمه كثيراً . يستلهم منها بعض جمال الطبيعة ويستوحيه في دورها الساذجة وسكونها المخيم غالب الاحيان . وحقولها وقد كستها الورود ولم تبق لاختها الخضرة اليانعة إلا بقعا طفيفة . يقبل على تلك الناحية العامرة بالجمال الذى يهواه . ثم أنت تراه كل يوم في عماد والازبكية واغلب الملاهى الراقصة المائجة ببعض الوان الفن البليد . وكنت أعجب كيف يجمع بين ميلين ينافى أحدهما الآخر ويناقضه ، هدوء وصخب ، وعزلة تشبع بالفن ومجتمع متكلف مقلد .

بسطت الصورة فاذا بها لوحة زيتية يملؤها نصف بدن يناهز العشرين . ويطل منها وجه لو انه تجسم لك في معرض الحياة لما وثقت الا أنه طيف من أطياف الرؤى أو صورة تنمقها ريشة تجرى بالوان الخيال وخطوط الوهم . ثم اذا أنا حدجتها تكاد توهمنى انها تفيض بالحياه وتزخر بالوجد والهوى والعذوبة وكل ما

يوافى به النضوج الأنثوى فى أول فترات ازدهاره وتفتحه . وإذا ما تأملتها استجليت عاطفة طارئة هى صدق شعور صاحبي . التحت فيها اشعاعة من نفسه تنم عن أنه هوى الفتاة قبل ان يهوى نقلها . وكدت تنكشف أمامى بعض معانى السر الذى كان يداخل نفس صاحبي وقتذاك .

قلت فى دهشة . . .

ـ هذا انموذج مدهش . . . من هذه ؟

أجاب فى تؤده . . .

ـ مخلوقه .

ـ اين وجدتها ؟

ـ جميلة ؟

ـ جداً ! مدهشه !

ـ والفن ؟

ـ رائع . . . ناطق . . . أجمل وأروع ما صورت ريشتك !

ـ اذاً كنت أحبها ساعة . . .

وسكتَ . قلت

ـ ساعة رسمتَها

ـ نعم . . . ساعة تأملتها

ـ من هذه ؟

ـ تكهن . . .

ـ من عائلة مجيدة ولا شك . . .

وكنت قد وضعت اللوحة مسندة فى ركن من الغرفة يخفى عنه الضوء قليلاً ، وابتعدت عنها لأتأملها وشهدت فيها روحين . واحدة لها واخرى له . واجتمعتا فكانتا اعجازا . جمال متبد فى ثوب من العمق شتيت تجود به مآقيها الحالمة الناعسة . وثغر يكاد يعتزم على الابتسام فتشغله عنه نوازع الذهن فتقف البسمة على

اللمى حائرة مائجة . وتحتار معهـا ثغرتان بوجنتيها . فكأنما اعتزمتا على ان تنفرجا فتوقفتا .

وهكذا التمعت فى ثغرها بسمة وفى خدودها أخرى وفى عيونهـا عاطفة تائهة . ثم روح صاحبى تبدت فى تواؤمها مع هـذا الحشد المجتمع من الملاحة الروحية والفتنة الغضة . وكأنما قنوعـه ورضاه بجملة ما التمحه بجيش فى المخلوقه ، قد أشرق فى نفسه فنقله أمينـا عبقريا . كل ماجاد به أنه أحبها ان تبدو كذلك فاعادهـا الى اللوحة كأنما هى قطعة منه .

وبدا عنقهـا نقيا صافيا تشربه سمرة واهنـة تكاد تذوب فى لون البياض الذى يكسو بشرتها . وكتفان كأنما شرة الشباب قد جرت فيهما فاستويتا فى استقامة حلوة آسرة ، تستنبىء منها عزة النفس وكبرياء فاتنه . وكأنما رفعا معهما الثديين فنهضا فى استدارة ريفية ساحرة

قلت فى نغمة يبين منها انى أكاد ارجوه ليوقفنى على ما اسأل

ـ اين عرفتها ؟

ـ في قطار .

ـ لا تهزل .

ـ بل أنا جاد

ـ قصّ علىّ أمرها

ـ طويلة قد تملها

ـ بل أحب الىّ أن تكون كذلك

وصمت برهة ثم سأل

ـ تعلم طبعاً أنى كنت فى سفرة الى المنيا منذ ثلاثة اشهر

ـ نعم . . وأذكر أنى لم أرك بعدهـا إلا اليوم ومرة أخرى

ـ لم أمكث هنـاك طويلا . بضعة أيام علي ما أزعم .

ثم أبت بعد أن اشتد الى العودة تلهفى وحنينى . ولست أدرى هل كانت عودة ميمونة أو سوى ذلك . سـوف أترك ذلك الحكم لك واقتصد في التعليق على جمـلة ما يوافينى من خواطر على أثر ما أفوه لك به خشية أن يطول بنا الامر

لم أكن قد شهدتها إلا قبل أن يتحرك القطار بثلاث دقائق . كنت أطل من النافذة إذ كان يقف على الأفريز صديقان اعتزما يومذاك توديعى . وأقبلت فى خطوات سريعة تحفها الخفة والرشاقة والدلال المضطرب.

واتجهت العيون نحوهـا تتبعها وهى تجرى ، حتى إذا ما وطئت أقدامهـا عربة القطار ابتسمنا جميعا رضى وارتياحا . كأنما نفوسـنا كانت ستنقبض إن لم تكن القادمة نالت مبتغاها . وفي لمحـة خاطفة ادركنا جميعا

البارع . وخلنا انها قد لا تكون شرقية الدم الا فى انهـا آسرة فاتنة تنبئك بخفـة ظلها دون ان تحظى منها بملحـة أو كلام ظريف . وفى أنك تنقاد الى الاعجاب منها كأنما انبعث اليك حنين الوطن واحساس القربى .

وتشعر أن الشعر المتوج رأسها فى فوضى حلوة ، وتجعد غير منتظم لم تكن تدفع من روحها وذهبها اليه إلا ذكاء وادينا اللامعة . وتخال إذ تلمحهـا لأول وهلة أنها تحمل العود الناهض الرخص الذى يستمتع به رائيه في بنات الريف . وما سوى ذلك فهى كالنسمة المتزنة إذ تهفو فى تواؤم وتناسق منعش مموق . يستروح رائيها حركاتها كأنما يرافقها توقيع ألحان .

وإذا ما لحقت بالعربة سمعنا كلامهـا فى مثل لحن مضطرب وهى تحمس الحامل وتشجعه بقولها . . .

ـ إجرى . . إجرى . . .

وما أن جرى يتبعه أخوها حتى لحقها . . . وجلست إلى جانب رجل مسن كان يجلس أمامى . وللحال صفرت القاطرة . فحييت خلانى ، وحيت أخاها بقبلة . . .

وإذ هم بالمسير خاطب الرجل ويده فى يده . . .

ـ من فضلك . . . أختى . .

ـ لا تخف . . .

ونزل وسار القطار . وجلست . وقابلت عينى عينها وأحسست أن كلينا وقد كادت تلم به بعض وخزات الفرقة قد أنس الى صاحبه . بل إنها لحظة أطلت من النافذة لتطمئن الى أخيها وتشيعه قبل ان يختفى ، أوشكت أن تفر من مآقيها المفعمة حناناً دمعة فحبستها . وإذا ما تلفتت اليها ، والتقت محاجرنا ، استشعرت بدواعى همها تزايلها . وفتحت كتاباً كان بيدى ورحت أقرأ . واخذت هى تتلو جريدة فرنسية كانت معها . .

ثم إذا بالرجل يبدأ يسألها .

ـ أنت من المنيا ؟ . . .

أجابت فى أدب جم ووقار

ـ نعم

ـ الى أى عائلة تنتمين

ـ من عائلة فلان . . .

ـ من عائلة فلان ! . . إذاً الخواجه س . . من ذوى القربى لك .

ـ إنه والدى . . .

ـ والدك ! أهلا . . أهلا . . أعز صديق والله . . كيف حاله الان . . لم أره من مدة

ـ بخير . . . أشكرك . .

ـ فرصة عجيبة . . . وإلى أين ؟

ـ الى الاسكندرية .

ـ ولكن الصيف لم يأت بعد

ـ سأزور أختى هناك .

ـ أظن أن الجو هنـاك على غير ما يرام هـذه الأيام . .

ـ ومع هذا فأنا أفضله كثيراً . أظن أنى تعودت الحياة بها اذ قضيت هناك كل سنى تعليمى . ولو أنى كنت بالقسم الداخلى كالحبيسة الا أنى لم أزهدها يوما . وقد تركت المدرسة هذا العام فقط . فملت أن أمكث بالمنزل ، وأرسلت لأختى خفية أنبئها بأنى اشتقت الى الرحيل . فأرسلت تطالبنى وتخلق لذلك دواعى جمة

ـ لعبة ظريفة . . تعرفى !

ـ وسأستعملها دائما

وضحكت ثم أردفت

ـ غير أن والدتى تشدد علىّ أن أمكث خمسة عشر يوماً فقط

ـ طبعاً اختك ستضطرك الى اطالة المدة . .

ـ وهذا ما أعتمد عليه . . .

ـ يعنى فيها للصيف ؟ . . .

ـ تقريباً

وضحكت ثانية . . .

وشـهدتها وهى تتكلم . اذ كانت لا تنى تحدجنى بين الفينة والفينة بنظرة فأحس انها تشاطرنى الحديث أو توجهه الىّ . . وكلما صوبت الىّ لمحاتها خاصة وهى مرحة النفس ضاحكة ، أحسست بغبطة فارطة ، وابتسمت لها .

وخب بنا القطار ينهب الارض ويطويها ، وتحركت مشاهد الطبيعة الناعمة تستعرضها عينى وقد بدأت تغمرها اشعاعات الشمس وهى ترتفع لماما فى الافق البعيـد فتنفث دفئها فى المناحى المترقبة والأبدان اللهفى . وأخذ الصباح المبكر يتقدم فى عمره وتدب فيه حرارة كأنها نفثـات الصبى والشباب . وانتعش الوجود الصاحى وأخذت ترقص أمامى جملة النبت الغامر اليانع والحقول

المخضرة والغدران السارية . ثم إذا بى أنقل البصر الى فتاتى فاشهدها وهى لا تخفض جفونهـا عنى ، لا تقل روعة عن هذا الخلق الكامل البليغ .

وللحـال نقبت فى حقيبتى وأخرجت ورقة وقلما فخما . . . بعـد أن غمرنى حنين جارف دافق الى أن أنقل شـيئا . ثم أعدت النظر الى الطبيعة الجارية ثم اليها ، فأرتحت الى رنوتى الاخيرة وكدت أثق ان كليهما قد روى من نبع الجمال العلوى .

واعتزمت ان اصورها . . . وراحت يدى تجرى بقلم الفحم على الورقة جريئة جبارة ، تسوقها دفعـات النفس ووثبات الوجدان إلى أصدق آيات الافصاح البليغ واروعه . وكان يخيل الىّ تارة انى شبعت من حسنها وافعم منه وجـدانى . وان مشاعرى لم يعد بها حاجة اليها بعد ان استمليت منها مؤونة عاطفتى الصادية لتنقل فنها الصافى . غير انى عدت ارقبها استجماما لأنقل

العبقرية الحائلة فى ملامحها . فنظرت اليها مدققا . فاستجلت انى اصورها . فأخرجت للحال مرآتها الصغيرة وارادت ان تهذب شعرها الثائر وتصلح انتفاضته الحلوة وتنيمها فأشرت اليها بحركة راجيا كى لا تفعل . . . اذ وددت ان تكون به روح النسائم وفتنتها . . . فرضخت . . . وانتهت الصورة فى دقائق فادرتها اليها لتراها . فلم تتمالك أن اعلنت دهشتها . فتيقظ الى ذلك صاحبنا المسن وكان يقرأ مجلة معه ، والتفت الىّ ، فلم يفهم مما دار بيننا شيئاً . . . وعاد الى تلاوته وعدنا نحن إلى نجوانا . نجوى جديدة سمت الى درج من التعارف الروحى يكسوه الفن ويوثق رباطه . وكادت تصرخ القلوب لنجوى أنطق من هذه . وكدت أحنق على اننا نهفو الى بعضنا فلا نتمكن من تبادل الحديث وبيننا خطوات . وسئمت النظرات وحدها فهى لا تروى ولا تقنع . وأحس القلب أن حريته حبيسة وشواعره مقيدة ، وأنه يريد

أن يسمعها نبضه المنغوم بلحنه الجديد. وأخرجت ورقة وقلماً وكتبت بالفرنسية بعد أن جال بخاطرى أن هذه خير وسيلة ...

*

« جميلتي ...

ما كان أعذبك حينما تردد على ثغرك الحلو اسم البلدة التى ولدتُ بهـا ، وأظلتنى حينا طويلا سماؤها . تثير فى نفسى أجمل الذكريات ان نطق بلفظها ناطق . غير ان ذكريات اليوم ، التى أثارها من مرقدها حديثك لم تكن كسابقتها التي طالما أحسست لها احساسا وتيراً . لم تكن بهذا القدر الضئيل الذى يحن الى استعراضه الذهن لحظات ثم يخفى . بل هى من فمك المسول أبقى واكمل . كأنهـا من فم الخلود . ان فى الامر سراً . لست ادرى اهو للسحر فى شفتيك أم لعاطفة الوجد فى قلبي .

---

* الرسالة مترجمة بقليل من التصرف الذى لا يخل بروحها

أنت جميلة . . . وليس أحب الى من أن أشهد الجمال ثم لا يضنينى أكثر من أن أشهده ولا أستمتع بأن أرنوله وأستملى منه . غير أن اسلوبى اليوم فى التقدير قد يبدو لك جديداً . هو اسلوب فنان . لم يقف على رؤيتك فحسب كأغلب من أحسست جمالهن ، بل تعداه الى إحساس آخر يرغبنى فى أن أعبر لك عما تختلج به نفسى .

ماذا اكتب لك ! . . . لست اتقن الفرنسية كثيراً . ولو أننى غير ذلك لقرضت لك أروع الأشعار وأجمل القصيد . . . ولكن غداً قريب . . . قد يمنحنى قبساً من لغة الآلهة فأشدو لك وأغنى .

يقول لى البعض أن فى روحى كنانة منه خافية . جمالك جدير أن يفتح الكنز ان تبدت بشائره وكان مطموراً .

بعد قليل ستكونين في بلدة الشاطىء . وسابقى

هنا بالقاهرة . أينما حللت فطيف من قلبي يحرسك . وسعيد مثلك من رعاه وجدان الآخرين وخيالهم .

إن شئت فمزق هذا أو ابتسمى له . وكلاهما يعنينى قليلا ثم يلفه النسيان فى الأكفان . وحينذاك فخاتمة الأمر جلية ، هى أن تموت العاطفة الوليدة رضيعة أو احفظيه كذكرى لهوى يدوم ولا يبلى . . .

فلان

ملحوظه : عنوانى كالآتى . . . .

وأطبقت الورقة وأعددتها لاعطيها أياها . والتمحت منها الرغبة أولا غير أنها أمهلتنى . حتى ادعت أنها تريد أن تتصفح المجلة التى معى وأخذتها بعد أن وضعت بها فى الحال الرسالة . . .

وقرأتها . . . فلم تمزقها ولم تبتسم . وخيل الىّ اذا أنها شاءت أن تحفظها كذكرى الحب الذى يدوم ولا يبليه إلا فناءنا . وصوبت الىّ لمحة يتسقط منها

فيض أحساس جديد كأحساسي واطمأن خلدى إلى ذلك ولم يمض وقت طويل حتى أدركنا أننا وصلنا القاهرة . وقام كل يعد حقائبه وحاجياته وينفض عن بدنه العثير

وتركنا القطار . واستأذنت من صاحبنا الذى الحّ على ألا يتركها إلا ساعة يتحرك بها القطار الثانى . فأبت وشكرت . وسارت وحدها .

وكان فى انتظارى صديق . فوقفنا قليلاً ، وأنا شارد أشيعها ببصرى ، وبعد حديث معه سألته أن يسبقنى الى المنزل ويحمل معه حوائجى ، فقمل على أن أعود بعد نصف ساعة . وبعد ان سرت معه لماما عدت الى صاحبتى . وتوجهت الى القطار الذى يتحرك الى الاسكندرية وكان قد بقى على موعد قيامه خمسة عشر دقيقة . . . وسرت على الافريز أطل خلال النوافذ والعربات فاذا بها تنتظرنى . . .

وابتسمتْ ، وابتسمتُ .

قلت في نغمة آسف .

ـ عزمتِ ؟

ـ نعم

ـ سأشتاق اليك

ـ أشكرك . ثم ترددت قليلا وأردفت

ـ وسأشتاق اليك . . .

ـ سأقابلك قريباً . . إن أردتِ

ـ أكون سعيدة .

ـ أكاد أفكر فى مرافقتك اليوم . . وابتسمتْ قالت ضاحكة

ـ أنت كريم . . .

ـ وأنتِ . . ألا تفكرين فى بقائك معى للقطار الثانى ؟ . . .

ـ من الصعب أن أفعل . ينتظرونى هناك بعد ثلاث ساعات .

ـ سأكتبُ لكِ .

ـ وسأكتب لكَ .

سألتُ .

وعنوانك ؟ . . .

ـ سأوافيك به حالما أصل

ثم سكتنا برهة وبدأت الحديث

ـ أنتَ فنان ! . .

ـ مبتدىء . . .

وابتسمتُ

ـ هذا تواضع منك . أرنى صورتى . .

ـ آسف . . تركتها فى حقيبتى . . سأرسم لك لوحة سواها زيتية هائلة .

ـ متى ؟

ـ غداً .

ـ مدهش ! ولكنى سوف لا أكون أمامك . .

ـ ولكن ستكونين ساكنة جنانى وخيالى . .

ـ وتكون مثلى تماما ! . .

ـ كما أنتِ . . . أتعرفين « رومنى » ؟

ـ لا . . من هو ؟ . .

ـ مصور عالمى . . أخرج لوحة خالدة دعاها المرأة الالهيـة . . . فكانت صورة تبقى ما بقى معها تاريخ الفن . خلدت ذكرى صاحبتها ، ونبه هو بعدها . سوف أعمل لك أخرى مثلها . . .

ـ هل كانت حسناء جداً . .

ـ عشقها الملوك والفنانون والقادة والفلاسـفة . ورومنى أيضاً

ـ ولكن أين أنا منها ! . . .

وضحكت فى نغمة حلوة آسرة

ـ فيكِ من الفتنة النـاضجة والحسن الفارط ما تزيدين به عليها .

ـ أنت تغالى . .

ـ ما اسمك ؟ . .

ـ وداد . .

ـ أرق وأعذب ما سمعت . . .

ـ ستذكرنى كثيراً ؟ .

ـ دائما حتى فى صلاتى .

ـ أتصلى ؟

ـ لِمَ لا . .

ـ عاشق الفن والجمال لا يفعل .

ـ إن وجد سر الملاحة ونبعها قنع ثم فعل وكان كالعابد يحيا فى محراب . مثلك فيه شىء كثير من السماء ، تذكرى صاحبك بالخالق وقدرته على الابداع .

ـ تظن أنك تقنع بحبى ؟ . .

ـ وموقن به .

ـ أنا شديدة الغيرة . . .

ـ وأنا شديدها .. فاطمئنى ...

ـ أنتم كالنحل .. لتجود بالرحيق الموموق لا تفوتك جملة الازهار ترشف منها .

ـ ولكن قد أعثر على زهرة عامرة تغنينى عما عداها

ـ إن فعلت لم يسم هذا القنوع بفنك

ـ تعنين ذلك إن لم أهف الى سواك ؟

ـ نعم .. الى العديد منهن

ـ سأنسى الفن ولا أفعل .

ـ تقدر ؟

أرغم نفسى عليه .. أنا فنان أحب الأدب والفلسفة أدرى المثل العليا ...

ـ المثل العليا ؟ أليس فيها أن الجمال ينشد

ـ نعم .. أنشده فيكِ ...

واخترق الفضاء صفير القاطرة تعلن انها اوشكت ان تتحرك . فتنهدت .

ـ انا نادمة . .

ـ لهذا التعارف ؟ . . . وابتسمتُ

ـ لا . . . ليس لهذا . بالعكس انا سعيدة به .

ـ ما السبب إذاً .

ـ الوقت . . ولى بسرعة

ـ بقى دقيقتان . .

ـ يخيل الى أن أعدل عن هـذا القطار ، وأوجل السفر الى الذى يليه .

ـ لا . . . لا تفعلى . .

وصمتنا . وعم الهرج فى كل المكان . وأخذ كل يحي مودعه . ودوى الصفير للمرة الثـانية . ومددت اليها يدى بعد أن مدت يدها . قلت

ـ سأقبلها . . .

ـ كما تشاء . . .

وأخذتها إلى شفتى لارشف منها الخمر التى لا تنسى

وشاعت القبلة فى كيانى لتطمس آثار سابقاتها وتحيا هى . . ونسيت الثغور التى لثمت بل ذكرتها فلم يكن فى مكنتها أن تنازع هذه بقاءها . .

وأحسست خفقان قلبها . والتمحت دمعة تنضح بها مآقيها . قالت فى لذة عجيبة . .

ـ انت تحبنى ؟ . .

قلتُ

ـ وانتِ ؟ . .

ـ ألم تعرف بعد . . أهواك كما لو كنت اعرفك من اعوام

ـ اخشى ان يكون كذلك الهوى الشائع بين الناس . اريد الحب تفنى من اجله الروح . اريد الحب فيه الحياة دون سواه . هل تحيا البلابل إلا لشدوها ؟ اريد القلوب ان احبت لا تنبض الا منغومة بالهوى ذاكرة له . . .

ـ لك منى اكثر من ذلك . . .

وتحرك القطار وتحركتُ معه ولا زلتُ قابضا على يدها . ثم توقفت ولوحت لها بمنديلى . وفعلت كذلك .

وفى اليوم الثانى لرحيلها انتجت لها هـذه اللوحة التى تراها . وحفظتها سلوى ، تغرينى على الصبر وتنسينى لوعة الفرقة .

ووافتنى منها رسالتان . ورددت عليهما بأروع وأجمل ما كتبت . ثم انقطعت عن الكتابة . وقلقتُ غير ان املى فى مقابلتها كان قويا .

ورحلت الى الاسـكندرية اول الصيف . اى بعد سـفرها بشهرين ونصف شهر . اقطع شـواطىء المصيف بحثاً وتنقيبا . زرت اولا سـيدى بشر . فلم اجدها . فبـدأت طريقا جديدة تبدأ من الرمل . . الشـاطبي فكامب شيزار فالأبراهيمية فاسبورتنج وأخيراً وجدتها فى كليوباترا . . .

كانت فى رداء الاستحمام تسير ومعها شاب كذلك يده حول خصرها ، وبدنه يلاصق بدنها . ويحادثها وقد كاد يطبق فمه على فمها لو لا انه يخشى أن يكبت نبرات ألفاظه فلا تسمع ، فباعد قليلا بين ثغره وثغرها واكتفى بأن يستنشق عبير انفاسها . . . وكانت هى الاخرى تلف يدها حول خصره . . .

كان يسكرهما الشاطىء عن أن يشهدا سوى نفسيهما فاذا بهما يرانى أمامهما .

قلت فى سخرية مرة لا تخلو من اضطراب نفسى وخفقان بادٍ .

ـ أنت هنا ؟ . . .

وكادت تُصعق . وأرخت يدها . وكادت تسقط لو لم يحتضنها صديقها . وأرادت ان تفلت من يده المطوقة فلم يسمح لها . وبقى كما كان . . .

قال يسألها فى تهكم

ـ من هذا ؟ . .

ونظر الىّ في كراهة مقيتة .

قلت بعد ان اغاظه ابتسامى

ـ صديق قديم يابك . . .

سألها ثانية .

ـ تعرفيه ؟ . .

وكادت تنطق إيجابا فلم يساعدها لسانها فسكتت .

قال موجها لى الحديث وأنا أحدجه تارة ، وأحدجها أخرى ثم أبتسم

ـ أنت وقيح . . .

قلت

ـ وأنت والله جميل . أجمل ممن شهدت من أقطاب التمثيل على اللوحة الفضيه . حتى رامون نوفارو لا يعدلك فى وجاهتك . ولذا فأنا أشفق عليك من أن أغرس رأسك الشقراء فى تلك الرمال المحرقة . . .

ثم وجهت لها الحديث .

ـ معذرة يا وداد . . . لا تهوى المرأة الالهية إلا الرجل الألهى . .

وتركتها لأنصرف

صرخت

ـ إسمع . . . إسمع . . .

فلم أجب ولم أعبأ

وأفلتت من صاحبها وجرت الىّ . وسألتنى وهى تلهث

ـ الى أين ؟

ـ الى القاهرة طبعا . . .

ـ لا . . ابق هنا . . . لا تتركنى . لا يخدعك جماله . هو بليد ، وأنت الى جانبه جبار

فابتسمت مشفقا عليها . وكان قد عاد الى عدم الاكتراث القديم الخالد فى قلبى . . . وسحبت يدى

من راحتيها فى ابتسامة وكل ما قلته لها

ـ لا تحاولى . . .

وركبت أول قطار الى هنا . وطيلة الطريق أضحك من نفسى . . .

* * *

سألته وكان قد صمت طويلا والبسمة باقية على كل ملامحه

ـ وبعدها ؟ . .

ـ طبعا تعرف ؟ . .

ـ أهملتها ؟

ـ دون شك . وهذه رسالة منها تقول انها تتعذب وقد تقضى هما إن لم أحضر .

ـ والعمل ؟

ـ انت للآن مجنون . . . تقضى أو تحيا فقد أصبح هذا لا يعنينى . أنا جائع . . . ألم يجهز الطعام ؟

* * *

وانتقلنا الى الغرفة نأكل . . . وكان كل شيء قد أعد ثم رحت أفهقه فى صوت عالٍ . . .

قال

ـ ايه ياسيدى اللى اضحكك

ـ اذا جاءتك لتغفر لها . وتقدم لك قلبها ثانية ؟...

ـ أطردها .

وقالها فى نغمة تدل على اليقين كأنما هـذا بديهة معهودة .

قلت

ـ مدهش ا . . . لا أثر لها عندك

ـ كامرأة عادية رسمت لها لوحة ثم انصرفت ..

ـ عملت خيراً . . . ولكن تعرف انهـا كانت ستغلك وتقيدك ، وتسلب فنك روعته ؟

ـ صحيح . أنت فهمت . . . ليكن الفنان كما قالت

كالنحل يرشف من كل زهرة

ـ حتى يعثر على الزهرة العامرة . . .

ـ لن يعثر عليها . . .

ـ أنت تكذب . . . ها هى ذا أتتك تائبة ، ولو قبلتَ لأسعدتك وحرصت على رضاك

ـ يا عزيزى . . . أقصد تلك التى ليس فى حياتها ثغرة . . . المخلوقة التى تحبك من يوم يولد لها عاطفة حتى تفنى . ولو وجدتها وعرفت لها ماضياً ، لما نعمت به ولو كان أخلد من حب دانتى وبياترس أو بترارك ولورا

. . .

وأكل وهم بالانصراف . قلت

ـ الصورة . هل نسيتها ؟

ـ لا حاجة لى بها . . . خذها . . أو مزقها وتركها وانصرف . . . ليمثل من جديد . . .

قلوب

٢٥ يناير سنة ٩٣٣

صراد

أنت لدى خلانك تارة كالينبوع الدافق الجياش ، وأخرى فأنت كالنجم الخافى فى مسارب السحب متى أطلت ذكاء . تقبل فى حنو طيع فارط على الزورات حينا طويلا ، إن وافاك إحساس اللهفة على أحد . ثم تعزف عن الأخر لغير دافع ملموح ، حتى ليعد اقصاؤك متعمداً مأمولا . وهكذا فانت فذٌ فى حاليك وكدنا نعرف عنك هذا سليقة باقية وسمة ملحة من سمات الحياة حتى لقد جمعتنى وبعض الرفقة جلسة منذ يومين ، فتهافت الكل على تجريحك لأنك آليت على نفسك أن تبدو مقصراً عند الجميع . غير أننا بعد أن سددنا عليك كل مسلك ومفر ، عدنا فاشفقنا عليك ، لأنك كما اتفقنا . . ظريف . . . ؛ وقال أحدنا فى الدفاع عنك ـ له العذر . هو ودود ولكنه محنك . يغيب ليجدد

بالفرقة فترات الود وينعشه . وكثرة اللقيان تبعث الملل .

نخدعنا انفسنا ، وارتضينا تلك الخاطرة المحبوكة عذرا صادقا . أخشى أن تتخذها يا خبيث عدتك الراسخة فى غيابك المديد . . فنجتمع مرة أخرى ، ونسحب ما قررنا ، ونصدر عليك حكما بالاعدام . . .

وصفى

* * *

٢ فبراير ٩٣٣

وصفى

لا أدرى لم يهتاجنى الحنين اليوم لان أكتب . رسالتك الطيبة الحلوة لم تعد تثير فىّ مثل تلك المشاعر الجمة السالفة ، فادرك انها دفعتنى . . .

تسلمتها فاذا بى أهاب تلاوتها ، كأننى استجليت سرها ومكنونها فما تقدمت بها ولا تقدمت بى . عرفت أن اليأس بعد تلاوتها باق والحسرة دائمة إن لم تزد .

وكنت لحظتها أجلس الى مكتبي لا لأقرأ أو أكتب ، ولكن لتغمرني الحيرة ويساورني القلق وما سوى ذلك فقد طرقته فما أفدت به ، وما وجدت فيه علاجاً لنفسي المحزونة .

استعرضت أمر زيارتي اياك ، لعلي في لقائك ما يخفف من حدة العبء ويريح النفس من بعض شجنها غير اني ألهمت أن ملمتي لا تجد لديك اشفاقا . وأنك وأنت أوقف الناس على جلية نفسي ستثقلني بلوم جديد بل أنك قد تشتد فتسخط عليّ وأسخط عليك .

وخلت اليوم أن الذهن قد يهدى ويرشد . ولكن كأنما هو والنفس في عناد . ولو أنه أضاء لها سنيّ المشاعل لما عزفت عن مسلكها ولو كان معتما . وكل ما يدفع به القلب ويبعثه ، فيه عذوبة للمرء ولو كان نافراً لا يقره عقل أو ترضى به حكمة . .

قد تعجبها ، وأنت تدري أن الطريق غير معبدة أو

ممهودة . عامرة بمثل الحسك الأسود والشوك المدمى ثم أنت بعد هذا تنتشى لحبك ويحلو لك كأنه منٌ موعود . ويروح فم الأمانى يجود لك كل يوم ببسمة تفنى فيها وهجة العقل أو سخطه . ثم أنت تغمر هواك بفيض جديد يروى به وينتعش . ثم اذا كبر وأينع وأثمر ، وتبدى لك الزهر أسود فى كمه ينبىء بالألم القادم ؟ تماديت فى هواك وتمادى الاخر فى تفتحه وأساه . واذا ما بدا كاملا زاكيا لم يفح به الطيب ، أو يقطر منه الندى اللألاء ، أو يتسقط الرحيق المعسول وتشهد بدلها السم يهمى فلا يخيل اليك انه دمك المتقطر فتندم . . . وتعشق هذا السر المضنى كأنه وليدك تحنو عليه ولو عانيت من أجله .

بل اننا يوم يسمو بنا الجموح وطفرة العاطفة الى مكمن الهلكة ، ليشهدنا حتى على وادى الموت نلمحه وما نظفر بنواله ، بل يبقينا الى الألم المض نرشف منه . ويوقفنا

وسط تلك المرحلة الحائرة من الجموح لا نذرى بعدها خطوة الى مثوى الراحة الازلية ولا نهبط أخرى ولو كان فى الهبوط خلوص تلك الروح وصفاؤها . وتتحرك عناصر الفكر ، وتتهالك على تلك المشاعر الجائحة الثائمة في الكيان المدنف المهزول تقنعها وترضيها . فما ترضى هذه أن تقنع . وان تراءى لصاحبها انها هبطت تبتغى أن تصفو وتنقى من شوائب جموحها فى صورة من صور الاستسلام الخالبة والأسى الصامت المكبوت ، الا انها فى الحق خدعة من خدع النفس مستورة . فما هى ترضى بالخلاص ، وما القلب يرتد ويتحول عن وثبات الجموح التى ابتدعها لنفسه . ويجول المرء فى لجة عامرة من ألم ما بعده ألم . لا يثور من أجله الى الموت فيحظى به ، ولا يهدأ الى الراحة الوافية بعد النضال العنيف . وانما يستقر فى عهد من العهود الخالدة فى حياة القلب ، عهد استسلام يشبه الهدوء ، ولكنه هدوء العذاب .

وهكذا يا صاح . ينتقل المرء فى حيـاته الى جحيم لا يدرى هل هبط اليـه ، أم توثب هو وجمح اليه . ويحس فيـه بكل ما يعرفه عن جحيم السماء . يرعى فى اللهب الصامت طويلا . وتنهشه الافاعى لا يسمع لهـا فحيح . ويحيا مع من عاشوا من الذين عذبهم أبو العلاء فى رسالة غفرانه ودانتى فى كوميدياه الالهيـة . ثم هو بعد هذا لا يحيا حياة الموت فحسب ولكن تكتنفه ايضا حيانكم المعهودة . وكأن منها وقودا خالدا لسيول اللهب ، وعمرانا آخر حافلا بالذكرى الملهبـة كما يحفل جحيمه الباقى بألوان العذاب .

وهل تزعم أن المرء بعد هذا يرقب فى لحظة واحدة من هـذا العذاب الابدى أملا فى منجى ، أو يشيح فترة بالستار عن عينه ليبصر بسمة من فم الامانى ؟ . . لا . . لا . . يرضى بموت عديد غير محصور ولا يقهر قلبه . وبعد هـذا فالمرء مسكين . ليس فى مكنته أن

يفعل شيئاً . خلق هـذا الخلق العجيب المعقد ليحار ثم يعانى . هذا هو ما يسمونه الوجود .

أتعرف يا وصفى متى يسعد الانسان قليـلا ، أو يرتاح من العناء المسنون له ؟ . . اذا خلق يسكن جنباته اكثر من قلب واحد . . .

مرار

* * *

٢ فبراير

مرار

كنت أحسبك سخيا مع صاحبتك الوالهـة تواقا اليها . وكنت أعهدك تكنز لها أكثر من الهوى المدنف المدمر لا يدرى يوما ما باعث الونى أو دخل الفتور . واذا ما كانت تغمرنى لجة من التفكير فى هذا الخاطر ، عددته هاجسا يضفى على القلب الخلى الذى يلفه الخمول والنسيان فلا ينعم بانيس أو رفيق . وعـددتنى أجهل

شئون الهوى واجبن عن صادق التقدير . فاذا ما رأيتها واستمعت الى حديثها ، وخبرت الجلال المهوم على روحها بان لى عي وعجزى ، ونعتت نفسى باكبر الغباء . وقلت لو قضى مراد من غمرة الوجد وسورة الهوى لكان به جديرا .

عجبت اذ قابلتنى بالامس سوسو ترافقها صديقتها المعهودة ، فاذا بها حسيرة محزونة ، حتى خيل الىّ وقد أذهلنى مشهدها أنه تبقى ان ترتدى حالك السواد ليعدل ما يكسو وجهها من هم وما يطمر منها البدن من عتمة .

واذا باشراقها قد تسرب اليه ذبول طارق متعجل . واذ التمحتها على حالها تلك ، تحركت فى نفسى كوامن غضبة وثورة وتطرق من وجومها المطبق ما دعانى لان أرتاب فى أنها هى . وللحال عرفت أن سوسو ذاقت الحزن أو الحزن أدركها . منحت كأس الدنيا فنهلت رشفة . لا فرق لديها بين الخمر والسم .

واستعرضتها فى حلم ذهبى وهى أمامى . لانى لم أشأ أن أشهدها الا كما كنت أعرف ، مرحة ، طروبا ، جزلة ، لا تدرى ما الأتراح . وتصورتها كما كانت ، متبدية كمن خلقت تخلد معها كل مشاعر البهجة . وشهدها ايضا خيالى راقصه كالاطيار شادية كالحمائم ، فاذا بى أحس كأنما جال بروحها وقتذاك لحن جديد مقفر راكد كانفاس لا تمنح الحياة بل تقبضها . . . قد يحز هذا اللعين فى النفس المشبوبة والقلب الجديد فتستعذ به وكأنما لغرابته يستقبل بالرضى و المتعة .

وأفاقنى انها شهقت تبكى . .

فصرختُ

ـ سأجن ! . . خبرينى ما حدث

قالت

ـ مراد . . .

ـ ماذا . . ماذا ! قضى ؟ . . .

قالت و الدمع زاخر

ـ هجرنى

وقبل أن تفوه بها ، كنت أحسبك و الله قضيت فحزنت عليك . ولا اكتمك الحق انى اتهمتك باكبر البغى وأشد العقوق . وان كنت قد واجهتها بغير ذلك . ورحت أخلق لك المعاذير ، واتكهن لها بانك لا بد تكتنفك هموم العالم وأوصابه .

لا تتوان فى أمر مكاتبتها . وسارع اليها بنبأ يطمئنها والسلام .

وصفى

* * *

٣ فبراير

مرار

عجبت لأمرك أشد العجب . أنت الاخر غارق فى أزمة نفسية جارفة كصاحبتك سوسو . ولقد قلبت

الأمر فى ذهنى الحائر ، لعلى أرى فى وجه من وجوهه ما يوقف على جلاء جديد فما وفقت . وكل ما جاد به كتابك مبهم محجوب . لم أدر منه إلا أن الأسى نال من قلبك وحز فيه أما ما عداه فكأنما عليه سدول وسجوف . ثم انك لم تذكر سوسو لا بالخير ولا بالشر كأنك لم تعد لك بها صلة ، أو يربطكما حب جبار . وقد كنت أحسب ملمتك تمسها وتدور حولها .

كنت أظنك وقد ابنت لك قدر الحزن الذى يحوطها ، تطير اليها طيراً . ولا تفلت منك لحظة دون السعى لرؤيتها . ولكنك لم تكترث ولم تفعل . . أخشى أن تكون قد وقعت فى حب جديد فتهلك تلك المخلوقة البريئة وتقتلها .

أرجو أن أكون خُدعت فيما تكهنت عنه بعد تفكيرى فى مقابلتك . وبعد أن جال بذهنى ما جادت به نهاية رسالتك الاخيرة . أملى أنك ما زلت

وفياً لها صادقا فى حبها . وما عليك إلا أن تنثنى فى سرعة عن هذا الأثر الجديد الذى كدرك ، وعن انك سعيت الى لقائها ، وأصلحت ذات البين بينكما .

وصفى

* * *

٥ فبراير

وصفى

لم تفهم بعد جمال الأسى وجلال الحزن . بل تعده وزراً أو رجسا يقبح البدن ويعفو بحسن الروح . وتقول أنك شهدت سوسو مع صاحبتها المعهودة ؟ . . وماذا رأيت في صفحة وجهيهما إن كنت قد انعمت ودققت ، إلا انهما تسامتا فى تلك اللحظة سويا وارتفعتا عن مهبط البشر ؟ . . . بل ان سوسو لم يتحرك لها وجيب قلبي بنغمة الحنين الا ساعة عرضتها لى فى صورتها الأخيرة . كيان حزين كأنما ينقصه السواد رداء لينسجم

ويبث فيه الكمال المنشود . هذا قبس من نور صاحبتها جادت به عليها .

أتعرف الارض المقدسة ، والبدن المطهر ، والنفس الصافية والقلب الخالد ، وكل ما دبت فيه بعض عناصر السماء ، هذه كلها تندت بقطرات الاسى . وهذه كلها اشتات كنت اتصورها متجمعة فى هذه المخلوقة كلما شهدتها مع سوسو .

وتتقدم بها الايام وما يزايلها الاحساس المضنى الملح كأنما هو لحظة مديدة العمر لا يفلت الواحد منها ولا تنقضى . ثم انها لا تنتهى بانتهاء أجلها المسطور ولو طال . بل انها لتخلق لها تاريخا حالما ماثلا لتُلمح فيه وتخلد . وحسبها أنها تحتال فتثوى فى قلب كقلبى يهواها .. فينعم بذكراها ان هجرت صاحبتها الحياة .

وأيامها ليست مع كل هذا مرهوبة ، وانما هى قانعة بها راضيه . يمر كل منها كسالفه ولا تشعر بأنه

بحمل هما جديدا . كأنها تعودتها . كل ما يهمها منها أن تقرأ وتكتب .

سألتها مرة وكانت تحمل كتابا شهدته معها أكثر من مره .

ـ أو تحبين كثيرا هذا الكتاب ؟ . .

أجابت فى كثير من اليقين

ـ هو خير رفيق أنعم به بعد صاحبتك سوسو

قلت

ـ ما اسمه

أجابت

ـ من الاعماق . . .

ـ عجيب ! . . هـذا كتاب لا تكاد ترومه إلا نفس متعبة مكدودة

قالت

ـ نعم . . ليضؤل أمامها وصب الحياة

ـ أواثقة أنت ؟ كنت أخاله يجلب الهم لقارئه من جديد

سألتْ

ـ أتعرف كؤوس الخمر ؟ . . .

ـ نعم . . . وكرعتها حينا لأنسى . . .

ـ كنتَ اذا تعالج هماً ! . . .

ـ وقاسيتُ من أجله . .

ـ ولكنك اليوم سعيد بحبك . تكاد تبدو لك جوانب الارض والحياة مشرقة وحواشيها مزدهرة

قلت

ـ صدقت . أما لبها فمثل جوف الوادى الغائر المهجور . خلاء خرب لا تسطع به ومضات أو تتراءى نجوم . . . ومن خلا للحزن واستأنس بالهموم لا يعرف من الحياة إلا باطنها

سألت

ـ وحبك ؟ . . .

ـ لا يجدى . . . أحاسيس المرء ومشاعره لمن تسبق . وما تبعثه فينا الفتاة الاولى باق راسخ لا تقدر على محوه ثانية أو غيرها . بلاء قلب المرء أمانته . لو لم يبق على عاطفة تجود بها الايام ويكنزها لما اكترث يوما لها أو ناء تحت وخزها . خلىٌ القلب دوما سعيد

ـ ألم تنس ؟ . . .

ـ فشلت . . . .

ـ جرب هذا . .

وأعطتنى الكتاب . ثم أردفت

ـ كذلك كل أسى صادق مبعوث من حنايا الضلوع ، عصير من القلب مخمور . . . اقرأه . . فيه ما فى الكؤوس ولم يحرم

ـ أظنه ينسيكِ . . .

ـ لا . بل يفيقنى الى هم صاحبه ويذكرنى به ،

فأحس إحساس التائه المردود يلقى رفيقا . هو أيضاً يحب من الحياة ليلها المعتم الصامت ، ويجفو صخب نهارها هو أيضاً كان لا يحفل أو يضجر ان عزف عنه الناس فبقى لا يؤنسه سوى الظل ان سار والصدى ان صرخ وما أظن صاحبه كان يكره أن يهزل ويضمر فيضحى كله نفسا محلقة حالمة لا ظل لها ، وقلبا واهنا لا تكاد تسمع الا نبضاته . ما كان يعى أثراً جديداً فى نفسه لو تراكب على يومه الفائت آخر كالبهج ما يقدمه الربيع وكانت اذا شمت لتغمره بالسنى ذكاء ، وسطع القمر وائتلق النهار فى زرقة سمائه الصافية ، ووهجة فى لون ذهبي لامع ، لما تسرب الى قلبه منها ومضة . وحتى ان افلتت اشعاعة شحيحة ما تكاد تزحف اليه حتى يجللها عتمة ، فتختلط بهذا الركود ثم ترجف وتفنى . . .

ـ أنت حزينة ! . .

وبثتها ممزوجة بما أحسه نحوها من عطف واشفاق

وادركت من عبارتى انى فهمت ووثقت . وتبدى القلق علىّ من أجلها . وكدت أحس حنينا متلهفا يدفع منى فى غير تمهل أو روية ، وتيقظ وجدانى الى هذا القلب الكسير المضنى ، فاذا حياته محصورة فى حيز ضيق موهوم لا يحس سواه . كالطائر ان سباه الاسر بعد أن يطول أمده عليه ويتعوده فهو يقنع به : وتراه يرقص ويقفز كأنما فيه لذته ونعيمه . ويغنى انشودة السجين ويطرب . وتفصح نفسه الحبيسة عما بها فى نغمات الرضى الحزين . . .

وسمعتها فكانت كذلك . وكانت نبراتها كالشدو المهموم ولكنه صاف كطائر الاثير . ما تكاد تستقبله اذ يهبط فى قرارك حتى يعود يتسرب فى خفة بعد أن يترك الذكرى الحلوة التى لا تبرح . واذا بالقلب ولو كان مأهولا بالاسى قد خف عنه بعض ما به كأنما تعلقت الشوائب بهذا الشىء الطارق الجديد ثم انجابت معه وأحسست انها ككتاب الحزن الصادق الذى بيدها

تتلوها فاذا بروحك يتملس عنها بعض العناء ، لا لانها انستك همك بل لانها هى الاخرى افاقتك الى ما تزخر به نفسها من كافح الألم . واذا بها أمامى كالقطعة الفنية تصفو بها الروح وتطرب من غير وهم أو خيال . نطقت فباد من افصاحها بعض ما بى ، وارتحت وإن لم أتلها كلها ، فانها لم تجد بكل ما يتعلق بسرها الهائل .

وبعد أن توقفت عن أن تجيبنى ، كادت تطفو على صفحة وجهها وتشرق لمحات من مستسرها الخافى . ورنت الى نظراتى فوجدتها فاحصة حائرة مشفقة ، تترقب أمرا وتبتغى الوقوف عليه . ولم تشأ أن تقلقنى طويلا سألت:

ـ اتركك الان . أتسمح ؟

قلتُ

ـ خبرينى قبل رحيلك . . .

فاستفسرت في ذعر هادىء

ـ ماذا ؟ . . .

ـ انت حزينة ؟

ـ وهل يهمك ان تعرف . . .

ـ نعم . . اسـاك يفيقنى الى همومك فأتأسى وارتاح . افصحى ليشاطر كلانا احساس الاخر وما يزخر به قلبـه . اسمعينى اعمـاقك ففيها اكبر السلوى وأجمل العزاء . وهى اصدق من تلك التى منحتنى لأقرأ

سألت

ـ في قلبك جرح يدمى . .

ـ لانه كان يحمل اكبر الحب واروعه . . وانت ؟

ـ مثلك تماما . ولكنى لا اقرب الذكرى او امهد لهـا . هى لدى كالقبر حرام ان تنبش . واكاد اثق ان اشباحها تخيف وترهب ولذا فقد بدأ الجرح يلتام . تراك تفعل مثلى ؟ . . .

ـ لا ... بل أناقضك ...

ـ اذاً تنكأه فيضنيك . . . ولا تنسى

ـ وانتِ . هل نسيتِ ؟ . . .

ـ بعض الشيء . . .

ـ ولم تجي ثانية ؟ . . .

ـ لن أفعل

وصمتت برهة ثم سألت

ـ وأنت ؟ . . .

أحبتكِ

ـ أنا ! . . .

ـ نعم

ـ وسوسو ؟ . . .

فسكتت حتى أردفت

ـ أسميك جاحداً إن فعلت . لم تجترىء صاحبتك ذنبا فتسبب لها الألم الدفين واللوعة الباقية . حسبك انك تدرى أن أثر فعلك يضنيها ويشقيها . . أوصيك

بها خيراً . سأتركك .

ـ الى لقاء . .

ـ لا تهتم بى كثيراً اترك ذلك للظروف

وحيتنى وبودى لو أمكث معها طويلا . وشيعتها عيونى حتى غابت . ثم عدت ولا أحب فى الوجود سواها .

* * *

١٢ فبراير

وصفى

لا تجزع من اجلى ولا تتألم . هذا يضنينى اكثر مما يخفف عنى . والا فقد تخلق فى نفسى اسى آخر اذ سببت لك الخواطر الملحة والافكار النابية .

انت طيب القلب كريم . تكاد لاشفاقك تمنحنى قلبك وتهبنى نفسك . بل اكاد استشف من افصاحك

انك تحمل لى هوى قديما كما تزعم . هذا يا صديقى يحيرنى . لا تفكر كثيرا فى امرى .

كل ما ساعمل هو ان ابقى على حب مراد . ارعاه واذكره وإن كان يصدنى ويهجرنى . علمت انه يشفق علىّ بقدر ما يحب صديقتى عديلة . سأحفظ له هذا ولا أنكره . ذهبت بالأمس الى صديقتى اطلب منها ألا تحرمه عطفها ولقاءها . أملى أن اشهدهما فى هناء . أنا يا صديقى أقدس الحب بقدر ما أنزهه عن الحسد . وإن كنت اجنح الى أن أثور وأسخط على مراد لعددت هذا أنانية منى فارطة . ليوجه عاطفته الى المنحى الذى يشاء فهى صافية نبيلة ، وسأستمر أهواه وأظله بعونى إن قدرت ، وهو نبيل يعى كل صنيع جميل

سوسو

الربيع
وقصص أخرى

للمؤلف نفسه

تناولته بعد صدوره أقلام الكتاب. ونكتفى بأسطر قليلة من كلمة قالها أديب الشرق الكبير عباس العقاد فى نقد الكتاب « لغة حسنة قوية. ومطلع مرجو فى فن القصة يبشر بصعود مطرد. وملكة واصفة لسمات الوجوه ودلالاتها، ترينا بواكير هذه القدرة المصورة نامية فى أرومتها . . . الخ »

قريباً يظهر

الخريف

للمؤلف نفسه

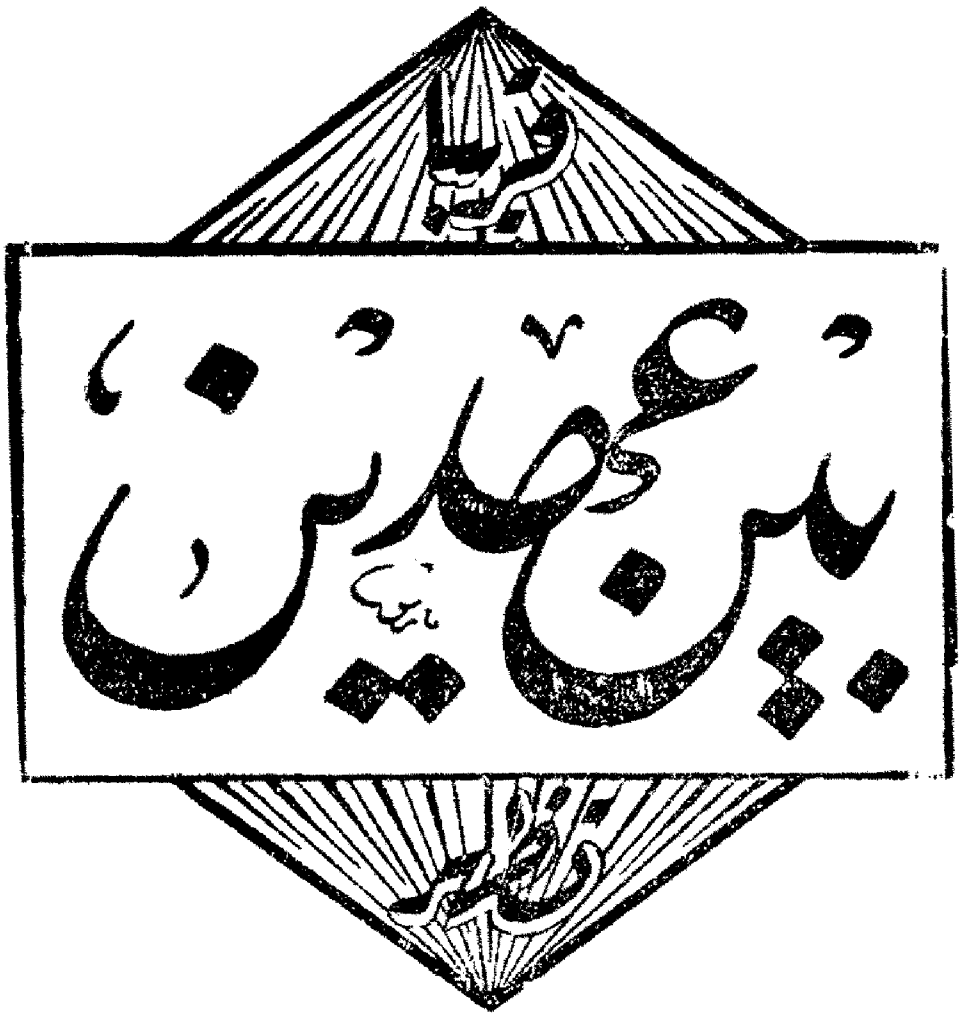

للمؤلف نفسه